الدكتور سامي نسيب مكارم

بأقلام عارفيه...

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٠١٣

الدكتور سامي نسيب مكارم

بأقلام عارفيه...

تصميم الغلاف والإخراج الفني
نضال العنداري

لماذا نكرّم سامي مكارم

سنة على الغياب.. ولم يزل سامي مكارم حاضراً في البال...

كان وقع غيابه ثقيلاً على أهله ومحبيه وكلّ من عرفه، وهو الأبُ الحنون والزوجُ الصّدوق والأخُ والصديق، ولكنَّ أثرَه الروحي والفكريّ والعرفاني والفنيّ والأدبي بقي وتفاعلَ، وها هو حاضرٌ معنا... ويستحقُّ التكريم.

نكرّمُه لأنّه كرّم التوحيدَ والعرفان، تأثّر وأثّر، تعمّق وغاص في بحارهما فاستخرج الدرَّ، ولم يبخلْ به على أخوانه وأصدقائه وأبناء مجتمعه وفكره.

نكرّمه، وهو المكرِّمُ نفسه بحضوره وعطائه وسلكه الإنساني القويم، تخصّص في الفلسفة والفكر الديني، فسافر في رحاب الفلاسفة والعلماء والحكماء وكبار العرفانيين والعارفين، ودخل في عمق الإسلام، مؤمنا بأن الدين عند الله الإسلام، باحثاً عن الحقيقة في رسالته السماوية المقدّسة، متطلعاً في عبادته إلى درجة الإحسان التي أشار إليها الرسول(ص)، وهي بأن تعبد الله كأنك تراه، ذاهباً إلى ما وراء الخط واللون والمعنى، أي إلى عيش التوحيد عيشاً صادقاً مع الله، قائماً على الصدق والأخوّة الخالصة والرضى والتسليم، فكان المعلّم المرشد المعترف بالعجز والتقصير، وتلك هي علامة المؤمن الموحّد.

أحبَّ شيوخه السالكين تلك الدروب الروحانية الصعبة الجميلة، فاحترموه وأحبُّوه، وهو القاصد خلواتهم المتواضعة، والمعترف بفضلهم والمتتلمذ في مدرستهم، والمنحني عند أعتاب نورانيتهم، بحب وإخلاص وتواضع قلَّ مثيله.

وصدَقَ سامي مكارم مجتمعَه المحبةَ ورفاقَه المودّةَ، وعلمَه الجدَّ والاجتهادَ، ففاض معرفة وحكمة، وتجلّى نبضه كتباً ومحاضرات ومقالات وأبحاثاً وشعراً وخواطرَ ولوحاتٍ تعبيرية وخطاً فنيّاً راقياً. كتب ورسم وحدّث فأجاد وأبدع... وكان الأستاذَ الجامعي بامتياز، نال حظّاً وافراً كلُّ من تعلّم على يديه وفكره... إذ كان حالةً لا تتكرّر إلاّ نادراً، وهو الذي أعطى من ذاته قبل أن يُعطي من الأوراق والكتب.

كان العرفانيّ المسافرَ في درجات العلم والمعرفة إلى الفضاء الأرحب... والطالب المسترشد بالعلم والمؤمن المهتدي بالمعرفة والموحّد المستأنسَ بالحكمة...

نكرّمه لكلِّ ذلك، أستاذاً وكاتباً ومفكّراً وعرفانياً موحِّداً، وقد اجتمعنا على تكريمه، وهو مَن كرّم ما نمثّل ومَن نمثّل، بنتاجه وغنى عطائه وصدق حبّه وغزير فوائده، فلذكراه العطرة ولروحه الطاهرة ولسيرته الطيّبة، كلُّ الحبِّ والتقدير، من اللجنة الثقافية في المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز، وقد كان وقد كان صاحب رأيٍ ثاقبٍ ورؤية عميقة، ومن الجامعة الأميركية، وقد كان الأستاذ الأبرز في التصوف والدراسات الإسلامية، ومن رابطة العمل الإجتماعي، وقد كان المحاضر الأوّل في قاعاتها والحاضن العطوف لأبنائه الجامعيين، ومن جمعيّتي "سدق" و "واحة العطاء" وقد كان الأب الحاني والمرشد الموجّه، ومن مؤسسة التراث الدرزي، وقد أغنى مكتبتها وسدّد خطاها، ومن المؤسسة اللبنانية للسلم الدائم، وقد كان أحد مؤسّسيها وأعمدة فكرها الإنساني والوطني المسالم، ومن تلك الكوكبة من الشباب الذين اجتمعوا حوله في العقدين الأخرين من حياته. الشكر كلُّ الشكر، لكلّ من ساهم في رحلة الوفاء، كتابةً وسعياً وكلمةً طيّبةً وتنظيماً ودعماً، والتحية لعائلته الصغرى، لزوجته الفاضلة وابنَيه الصديقَين وابنتَيه الكريمتَين وعائلة مكارم المحترمة، ولعائلته الكبرى، لزملائه وطلابه وأصدقائه ومحبّيه الكُثُر، وعسى أن نكون في عملنا هذا قد قدّمنا نفحةً من وفاءٍ ومحبة لرجلٍ وفيٍّ محبٍّ خسرناه ولن ننساه.

لجنة التكريم

رئاسة
الجمهورية اللبنانية
المراسم

---------- برقية ----------

حضرة الشيخ سامي أبي المنى
رئيس اللجنة الثقافية في المجلس المذهبي لطائفة الموحِّدين الدروز

لمناسبة الحفل التكريمي الذي تقيمونه للكاتب والمفكر والأستاذ الجامعي الراحل الدكتور سامي نسيب مكارم، أعرب لكم عن تقديري لهذه المبادرة القيِّمة التي تسلطون فيها ضوء المحبة والاعتزاز على علم من أعلام لبنان النيِّرين، متمنياً لكم دوام التوفيق في نشاطاتكم الخيِّرة في خدمة لبنان الثقافة والفكر والانفتاح.

مع أطيب تحياتي ومودتي.

العماد ميشال سليمان
رئيس الجمهورية اللبنانية

بعبدا، في ٢٠١٣/٥/٣٠

الدكتور سامي مكارم
خبير الخط العربي والدراسات الإسلامية *

توفي أستاذ الدراسات العربية والإسلامية والمتخصص في الخط العربي في الجامعة الأميركية في بيروت سامي مكارم اثر مرض مفاجئ.

ورغم كونه في العقد الثامن، كان مكارم لا يزال يدرّس بدوام جزئي في الجامعة الأميركية صفوفا في التصوف الإسلامي والنثر العربي القديم، حتى وفاته.

وفي تفاصيل سيرته الذاتية التي نشرتها الجامعة، انه ولد في عيتات في قضاء عاليه، والده الشيخ نسيب مكارم صاحب الروائع الفنية في مختلف أنواع الخطوط العربية. تلقى علومه الابتدائية والمتوسطة في الليسيه الفرنسية في بيروت والثانوية في الكلية اللبنانية في سوق الغرب. أما المرحلة الجامعية فبدأها في الجامعة الأميركية في بيروت حيث حاز درجة بكالوريوس في الأدب والفلسفة في عام ١٩٥٤ ودرجة ماجستير في الأدب العربي في عام ١٩٥٧. ثم انتقل إلى جامعة ميشيغان في الولايات المتحدة الأميركية لينال منها في عام ١٩٦٣ درجة الدكتوراه في الفلسفة في دراسات الشرق الأوسط متخصصا في الدراسات الإسلامية الباطنية.

وبعد عودته إلى لبنان وتدريسه في الأميركية، شغل رئاسة دائرة الأدب العربي ولغات الشرق الأدنى فيها مرتين. كما كان أستاذا غير متفرغ في برنامج الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية من عام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٨١. وقد عين أيضا مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في الجامعة الأميركية في بيروت من عام ١٩٧٥ إلى ١٩٧٨.

* نصّ النعوة الصادرة عن الجامعة الأميركية في بيروت.

ونشر ثلاثة دواوين شعرية هي: "مرآة على جبل قاف (١٩٩٦)"، و"ضوء في مدينة الضباب (١٩٩٩)"، و"قصائد حب على شاطئ مرآة (٢٠٠٤)". وله أكثر من عشرين كتابا إلى جانب عدد كبير من المقالات في دوريات متخصصة، ومئات الأعمال الفنية التشكيلية.

يصلى على جثمانه اليوم في مسقط رأسه عيتات

٢٠١٢/٨/٢١

أبحاث ودراسات

الإمارة التنوخية
في
ذاكرة سامي مكارم التاريخية

أ.د. أحمد حطيط*

لئن حاولت أن ألم بسيرة الصديق الأستاذ الدكتور سامي مكارم، فاني أرى أن نتاجه العلمي قد انماز بالتنوع والعمق والدراية، بحيث لا تكفي مثل هذه العجالة أن تفيه ما يستحقه من ثناء وتقدير، وحسبي أن أختار واحدا من مؤلفاته، وهو كتابه الموسوم "لبنان في عهد الأمراء التنوخيين"، وقد قرأته بعناية واهتمام، فلفتني غير جانب منه، ولو أنني أجد نفسي أكثر ميلاً الى اعتماد مصطلح "جبل لبنان" بدلا من مصطلح "لبنان" الوارد في عنوان الكتاب، مراعاة للدقة العلمية التي لا أظن أن الباحث الكريم قد غفل عنها؛ فلعله، في ما ذهب اليه، قد آثر التعميم في معرض التخصيص، لمكانة الجبل المميزة في الذاكرة التاريخية لكثرة من اللبنانيين، بوصفه قلب الوطن النابض بالحياة ومحور الحيوية والنشاط فيه.

يؤرخ الأستاذ مكارم في كتابه، هذا ، لجانب مهم من تاريخ لبنان، يتعلق بالعشائر التنوخية اللخمية التي قدمت، على دفعات، الى البلاد من مضاربها في معرة النعمان، بدءا من أيام معاوية، وربما قبل ذلك بقليل، ثم ما انفك قدومها متواصلا بكثافة، حتى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لتستقر جموع تلك العشائر في مختلف المناطق اللبنانية، على امتداد السواحل، وفي الجبال الشرقية المشرفة عليها، وخاصة في كسروان والأشواف،

* عميد كلية الاداب والعلوم الانسانية، الجامعة الاسلامية في لبنان.

فتتبع الباحث تاريخهم عبر العصور المتعاقبة الى حين اضمحلال امارتهم وزوالها في مطلع الحكم العثماني لبلاد الشام.

توقف الدكتور مكارم عند اشكالية الأنساب، فأوضح ملابستها، وفكك تعقيداتها، سيرا على نهج مشاهير النسابة العرب، كالبلاذري، والسمعاني، وابن القيسراني، كما فسر خلفيات الدسائس والفتن التي عصفت بالجبل، وعللها، وأحال أسبابها الرئيسية الى حالة الصراع على السلطة بين كبريات عشائر الجبل ، ممثلة بالأسرتين الأرسلانية والبحترية الجميهرية، ناهيك عن مساعي السلطة المركزية الحثيثة لاحتواء امارة الغرب التنوخية، تمهيدا لاطاحتها، وخصوصا في أيام المماليك، مفردا فسحة كبيرة من كتابه لابراز الوجه المشرق للامارة من خلال تصديها الناجح للأخطار التي تعرض لها الساحل الشامي على يد البيزنطيين والفرنج اللاتين.

ونظرا الى كثافة المسائل التي يعرض لها الكتاب، سأقصر مطالعتي على أمور ارتقت الى مستوى الجدة في دراسة الصديق الكبير الدكتور مكارم، من ذلك:

– توضيح أمر ملتبس في المصادر، وفي كتابات المؤرخين المحدثين، ممن تصدوا لتاريخ الجبل، في عهد الأمراء التنوخيين، يتعلق بأسماءأعلام تنتمي الى كل من الأسرتين الأرسلانية والبحترية، ناتج عن وجود بحترين في زمن واحد، يدعى كل منهما أبا العشائر بحتر بن علي. فقد لاحظ الدكتور مكارم أن ثمة اختلافا كبيرا حول هذه الشخصية المرموقة في كل من " السجل الأرسلاني" و " تاريخ بيروت" لصالح بن يحيى، فوجد أن المصدرينلا يشتركان الا بنسب بحتر، المذكور،

الى المنذر بن ماء السماء، ما جعله يرجح امكانية معاصرة رجلين باسم واحد، وكنية واحدة، ولقبين مختلفين:

– الأول: هو ناهض الدولة أبو العشائر بحتر بن شرف الدولة علي، ويرجع نسبه الى جمهير بن تنوخ بن قحطان (توفي عام ١١٥٧).

– والثاني: هو ناهض الدين أبو العشائر بحتر بن عضد الدولة علي، ويرجع نسبه الى أرسلان بن مالك (توفي عام ١١٦٦، أي بعد حوالى تسع سنوات من وفاة الأول).
ويحيل الزميل مكارم سبب الخلط بين الرجلين الى غفول صالح بن يحيى عن بحتر الأرسلاني، وغفول "السجل الأرسلاني" عن بحتر الجميهري، لأسباب تعود الى تنافس على السلطة بين التنوخيين والأرسلانيين، وصل الى حد الصراع الدامي.

ومن مظاهر الجدة، في دراسة مؤرخنا، مخالفته ما شاع من أسباب الخلاف بين المماليك البحرية والتنوخيين، والتي حصرها الدارسون بحالة عدم ثقة المماليك بالأمراء التنوخيين، نتيجة ممالأة هؤلاء، أحيانا، للفرنج. لقد حسم الدكتور مكارم هذه المسألة الشائكة معللا أسباب انقلاب المماليك على أمراء الغرب التنوخيين بالتحولات التي أصابت بنية النظام العسكري، في مرحلة مبكرة من حكم دولة المماليك البحرية، فبين، بما لا يحتمل الجدال، أن السبب، في الانقلاب الآنف، انما يعود في الدرجة الأولى الى التغيرات التي طرأت على نظام الاقطاع المملوكي، والتي لاحت ارهاصاتها الأولى في أيام السلطان الظاهر بيبرس، لتظهر الى العلن في نظم واضحة المعالم في أيام السلطان المنصور قلاوون وولديه الأشرف خليل والناصر محمد.

وكان من الطبيعي أن تطاول النظم العسكرية الجديدة امارة الغرب التنوخية، وقد حدث مثل هذا، بالفعل،عندما أقدم نائب الشام، عام ١٢٨٨، على ضبط ايقاع السياسة العسكرية في منطقة الجبل الاستراتيجية لتصبح منسجمة مع نظام الاقطاع العسكري المعمول به في بلاد السلطنة في مصر والشام، فصودرت أملاك أمراء الغرب واقطاعاتهم، وأتبعت بجند طرابلس، بعد استعادة المدينة من الفرنج، في العام التالي، واستمر الأمر كذلك الى ما بعد اعادة الأشرف خليل الاقطاعات الى أمراء الجبل، حيث ظل هؤلاء الأمراء مرتبطين بنظام الحلقة، النواة الأساسية للنظام العسكري المملوكي.

ومنذ ذلك الحين، أضحى تولي أي من أمراء الغرب لاقطاعه مشروطا بمدى قدرته على متابعة الخدمة العسكرية، والا كان عليه أن يتنازل عن اقطاعه الى وريث ما، غالبا ما يكون أحد أبنائه، الأمر الذي سهل على المماليك الامساك بمنطقة الغرب سياسيا وعسكريا.

وثمة كشف جديد، توصل اليه الدكتور مكارم، في كتابه، يتصل بالغاء منصب الامارة على الغرب، منذ بدء عهد دولة المماليك الجراكسة، فقرر، في ضوء استقرائه للمصادر الموثوقة، أن المنصب المذكور أبطل رسميا، بعد وفاة الأمير فخر الدين عثمان بن يحيى التنوخي، شقيق المؤرخ صالح بن يحيى،عام ١٣٩٣، وأن السلطان برقوق، مؤسس دولة المماليك الجراكسة، لم يصدر، بعد ذلك، منشورا لأي من الأمراء التنوخيين يعترف به أميرا على الغرب، بل آثر الاكتفاء باقرار أمراء الغرب، كافة، على اقطاعاتهم كي يربط كل واحد منهم بسلطة نائب دمشق المباشرة، وهو ما درج عليه سلاطين المماليك من بعده.

ويصرح الدكتور مكارم أن ما ذهب اليه يعتمد، أساسا، على سقوط عبارة أمير الغرب، بدءا من التاريخ السالف (عام١٣٩٣) من نصوص المؤرخين، ومنهم،على سبيل المثال، صالح بن يحيى و"السجل الأرسلاني" وطنوس الشدياق. من هنا نفهم سبب حرص الباحث على التأريخ للأمارة التنوخية حسب تعاقب أمرائها، وليس بوصفها كيانا سياسيا، وذلك لأن اعتماد المنهج الأخير يضع المؤرخ، بالضرورة، في مواجهة احراج علمي أكيد، ناتج عن انقطاع صفة الامارة، رسميا، في بلاد الغرب، منذ بداية عهد دولة المماليك الجراكسة.

ولئن كنا نوافق الزميل الدكتور سامي مكارم على مجمل ما توصلت اليه دراسته من استنتاجات قيمة، ومنها أن مثاغرة التنوخيين العرب في مناطق شاسعة من أرجاء جبل لبنان، لفترة جاوزت تسعة قرون، قد أسهمت في ارساء ملامح الهوية العربية للجبل، وأن الأمراء التنوخيين في أدائهم السياسي والاداري فصلوا انتماءهم المذهبي عن سياسة الناس وتدبير شؤونهم، فان من حقنا أن نتساءل عن مدى قدرة أمراء الغرب التنوخيين على توفير الظروف الملائمة لاستقلال ذاتي ما يحظى بمقومات الحضور والثبات، ولو في حدود معينة، في بقعة فرض عليها موقعها الاستراتيجي أن تكون، على الدوام، نقطة ساخنة، تتقاذفها حالات التجاذب بين القوى الفاعلة على ساحة الصراع، في بلاد الشام، منذ الفتح العربي وصولا الى خضوع المنطقة للحكم العثماني؟

وفي ايجاز نقول ان كتاب الأستاذ الدكتور سامي مكارم قد أجاب عن تساؤلات كثيرة متصلة بتاريخ أجزاء كبيرة من لبنان الحالي، بموضوعية رصينة، وعقل هادئ، ومعرفة واسعة بتاريخ الأسرة التنوخية، فتجنب الأفقية السردية، في دراسته، متوغلا في التحليل والربط والاستنتاج، مقدما معلومات قيمة موثوقة ومكثفة، بدقة وأمانة ظاهرتين، ما ينم

عن تكوين ثقافي وعلمي متنوع المصادر والمناهج، ووعي تاريخي يتم من خلاله ادراك المفاصل الأساسية لتاريخ جبل لبنان، في عهد الأمراء التنوخيين، اضافة الى تكوين أدبي يشي به أسلوبه الأنيق والجذاب، بحيث بتنا معه لا نميز بين التأريخ والأدب، على غرار السلف العظيم، كالمسعودي، وابن الأثير، وشمس الدين الذهبي، وابن أيبك الصفدي، والقلقشندي، وغيرهم من علماء العرب.

وما يمكن أن يقال عن كتاب الصديق سامي أنه يمثل جهد المؤلف في جمع الحقائق، وتمحيصها، وتفسيرها، وتعليلها، ولكن فوق هذا، كله، قد عرضها بشكل بناء نستطيع أن نسير فيه على هدى، وهذا ما يضع الكتاب في مرتبة خاصة بين المصنفات التاريخية التي تزخر بها مكتباتنا العربية .

وبعد،

لقد كان العلامة سامي مكارم شخصية جليلة القدر، شامخة الذروة، متعددة الخصال، وفيرة الخصب، غزيرة الانتاج؛ ويوم نكتب تاريخ نهضتنا الحاضرة سيكون الصديق سامي من معالمها الشاخصة، ودعائمها الراسخة، لما قدمه من فيض علمه، وواسع معرفته وخبرته. ولئن رشحته ريادته العلمية ليتبوأ مكانته في الصدارة، فحياته الحافلة بمآثرها ترشحه لأن يكرمه لبنان علما من أعلامه العاملين في اخلاص وصمت، وانكار للذات، وأن يكرمه مجتمعه فردا وقف فكره وجهده لخدمة العلم والمثل الكريمة.

التقية في الإسلام
وجهتا نظر

أ.محمد السماك*

أول ما يلفت الانتباه في كتاب د. سامي مكارم هو عنوانه: "التقيّة في الإسلام"، يطرح هذا العنوان علامات استفهام كبيرة:

أولا: هل أنَّ في الإسلام تقية؟... أم أن التقية هي في مذهب دون آخر من مذاهب المسلمين؟

ثانيا: هل أن التقية سلوك إسلامي مكتسب تحت ضغط ظروف وأوضاع طارئة واستثنائية، أم أنها في أساس العقيدة يمكن اللجوء إليها في حالة الشدة أو في حالة اليسر وفي حالة القلق أو في حالة الاطمئنان؟ بمعنى هل أن ضيق صدر حاكم إسلامي معين، أو مجتمع إسلامي في ظروف معينة باجتهادات فقهيه ما، دفعت بهذا الفقيه إلى ابتداع التقية سلامة لأبدان أتباعه من الأذى ولإيمانهم من الانتهاك؟ أم أن التقية رافقت الدعوة الإسلامية منذ إشراقتها الأولى في مكة المكرمة وقبل الهجرة إلى المدينة المنورة، واستمرت فيها وبعدها؟ وتاليا هل أن للمؤمن حق اللجوء إلى التقية حتى من دون إكراه أو اضطرار؟

ثالثا: هل أن اللجوء إلى التقية يكون خوفا من أذى الآخر وتجنبا لشرّه، أم انه يكون أيضا مراعاة لمحدودية الفهم عند بعض المؤمنين، ولعدم قدرتهم على استيعاب حقائق إيمانية

* أمين عام الهيئة الوطنية للحوار الاسلامي المسيحي.

كبيرة؟ أو يكون خوفا من إساءة فهم هذه الحقائق وتاليا تحسبا من سوء عاقبة التعامل مع هذه الحقائق على غير ما يقتضي الحال؟

رابعا: هل التقية إجازة _ ورخصة _ من الله للمؤمنين، أم أنها مجرد اجتهاد فقهي إنساني اخذ به هذا العالم المجتهد وأنكره ذاك؟

خامسا: إذا كانت التقية في الإسلام، كما يقول د. مكارم، فهل ثمة تقية في الأديان الأخرى أيضا؟ في المسيحية واليهودية تحديدا؟

سادسا: هل أننا جميعا نمارس التقية من دون أن ندري؟ وهل أن انفتاح معرفتنا على هذه الحقيقة (التي حاول د. مكارم أن يؤكدها من خلال استشهاداته الكثيرة بالآيات القرآنية الكريمة وبتفاسير أئمة كبار علماء المسلمين) سيغير من نظرتنا إلى التقية بحيث نتعامل معها على أنها ركن من أركان فضائلنا الإيمانية؟ ومن ثم نرفع عن أهلها الشك وسوء الفهم؟

إذا خرجنا من هذا الكتاب بإجابات ايجابية على هذه الأسئلة فان الكتاب يكون قد أحدث صدمة في الفكر الإسلامي داخل منظومة الثوابت الإيمانية. ويكون قد فتح آفاقا جديدة في الاجتهاد الفقهي وحتى في فقه الاجتهاد. وهذا حكم جريء.

في توطئته للكتاب يؤكد د. مكارم على أمرين أساسيين:

الأمر الأول هو أن التقية هي من الأسس المهمة في الإسلام، وان القاعدة الرئيسية هي ممارسة التقية، وان الفرق الإسلامية التي لم تمارسها هي الفرق الشاذة عن القاعدة، وهذا يعني أن القاعدة عنده هي ممارسة التقية.

أما الأمر الثاني فهو أن للتقية شروطا شرعية وأصولا ومقتضيات أقرتها الشريعة الإسلامية. ولم يقل د. مكارم أقرها الفقه الإسلامي. وهذا استنباط جريء أيضا.

لقد كان واضحا أن د. مكارم اعتمد تعريف ابن حجر العسقلاني للتقية. وهو تعريف يقول فيه "إنها الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير" (ص٩). وهذا تعريف عام جدا. إلا أن الأمر المحدد والمهم، هو أن د. مكارم اعتبر أن كلمة التقية تعني ما تعنيه كلمة تقاة الواردة في الآية الكريمة ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير﴾(سورة آل عمران – الآية ٢٨). وجاء اعتباره هذا كما قال في (ص ٩) أن اللغويين يجمعون على ذلك. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو هل يجمع على ذلك أيضا الفقهاء؟ في محاولة غير مباشرة – ربما – للإجابة على هذا السؤال قال د. مكارم (ص ١١) "يمكننا القول أن الآيتين القرآنيتين اللتين انطلق منهما المفسرون على العموم عند تناولهم التقية في الإسلام هما الآية المذكورة آنفا والآية التي تقول ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ (سورة النحل – الآية ١٠٦) وقد نزلت هذه الآية في احد المهاجرين

من مكة إلى المدينة (عمار) وقع في اسر الكفار، فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية فخلوا سبيله. ولما وصل إلى المدينة واخبر الرسول (ص) بما حدث قال له رسول الله: "كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشرحا بالذي قلت أم لا". قال: لا. فنزلت الآية ﴿إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

ويؤكد د. مكارم (ص ١٥) "أن معظم المفسرين اقروا بصورة مباشرة أم غير مباشرة، بأن المضطر يجوز له التقية إما قولا وإما فعلا تيسيرا له من الله لا تعسيرا، واجتنابا للقتل أو للحرج. وإذا نحن نظرنا إلى جميع الآيات المذكورة آنفا نرى انه رُخِّص للمؤمن المطمئن قلبه للإيمان أن يظهر الكفر تقية من الكافرين إن هم أكرهوه على ذلك.

يرى د. مكارم أن آراء العلماء اختلفت في شأن التقية من حيث جوازها ووجوبها وامتناعها، ومن حيث أحكامها وشروطها. كما يرى أن الآراء تعددت وتشعبت في شأن أسباب التقية حتى أنها تجاوزت الإكراه إلى أسباب أخرى كالرغبة في هداية العدو باستدراجه إلى الإيمان واتقاء استعدائه". وقد نقل عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود انه لا يرى جواز التقية خوفا على النفس فقط، بل يراها تجنبا لأدنى إكراه يلحق بالمسلم (ص ٢٢).

وفي اجتهاد د. مكارم أن مصطلح "التقية" أو "التقاة" تعزز بمصطلحين قرآنيين آخرين هما مصطلحا "الظاهر" و"الباطن". ويقول انه "مع أن المفسرين اختلفوا على بعض التفاصيل عند تطرقهم لهذين المصطلحين اختلافا كبيرا في بعض الأحيان فقد اتفقوا على أن "الظاهر" هو ما يعلن، في حين أن "الباطن" هو ما يخفى في القلب، وان "ظاهر الشيء" هو حرفيته، وان "باطن الشيء" هو حقيقته التي لا يصل إليها إلا أولئك الذين

يتوخون الولوج في جواهر المعاني وما ترمي إليه وتشير، وذلك بتأويلهم النص دون الاكتفاء بمعناه الحرفي. وهم يقولون بأن هذا التأويل، أي ما يشير إلى المعنى الأصلي، لا يعلمه إلا الله والراسخون في العالم، لقوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكّر إلا أولوا الألباب﴾ (سورة آل عمران – الآية ٧).

اختلف المفسرون حول قراءة هذه الآية الكريمة وليس حول نصها. هل "والراسخون" مبتدأ خبره الجملة الفعلية، "يقولون آمنا به..."، أي أن الوقف في القراءة يجب أن يكون بعد اسم الجلالة، بحيث تقرأ الآية: وما يعلم تأويله إلا الله. ثم تتبع البقية: والراسخون في العلم يقولون آمنا به... إلى آخر الآية. وبذلك يقتصر علم التأويل على الله وحده دون "الراسخون في العلم". أما القراءة الثانية فهي تجعل "الراسخون" معطوفة على اسم الجلالة، أي أن الوقف في القراءة يكون بعد "الراسخون" معطوفة على اسم الجلالة، بحيث تقرأ الآية: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم. ثم تتبع البقية: يقولون آمنا به... إلى آخر الآية. وكذلك يكون الله والراسخون في العلم يعلمون تأويله.

أدت القراءتان المختلفتان لنص واحد إلى قيام رأيين متباينين كل التباين، رأي لا يجيز للناس تأويل القرآن مهما رسخوا في العلم، فعليهم إذا أخذ معانيه بظاهرها وعلى حرفيتها، ورأي يجيز للراسخين في العلم تأويل الكتاب والأخذ بمعانيه الباطنة. الدكتور مكارم في كتابه يدافع عن الرأي الثاني ويتبناه.

صحة ما ذهب إليه، فقد أردت عرضه لأنه يعكس وجهة نظر أخرى ليست معاكسة فقط، ولكنها سلبية أيضا. يقول المؤلف: "نشأت الدعوة الفاطمية ونظمت مبادئها السرية للمرة الأولى على يد جماعة من... الثوريين الذين تظاهروا بالإسلام وعملوا على غزو العقيدة الإسلامية...، ونشر التأويلات التي يتأول بها دعاتهم على القرآن والسنة، واعتبار أن لكل شيء ظاهرا وباطنا، حتى القرآن الكريم نفسه، جعلوا له ظاهرا وباطنا، أما الظاهر: فهو دلالات ألفاظه العربية حقيقة أو مجازا، وأما الباطن فهو ما وراء هذا الظاهر أو هذه الدلالات، وهذا لا يفهمه _ في زعمهم _ إلا أئمة المذاهب. وهذا الباطن لا تقيده دلالات الألفاظ العربية، ومعانيها اللغوية، وليس الظاهر إلا رموزا وإشارات لا يفهمها العوام، الذين هم أهل السنة في نظرهم، فأهل السنة بكل علمائهم بدءا من الصحابة الكرام حتى الآن – إنما هم عوام وجهال في نظرهم لأنهم لا يعلمون علمهم الباطن،وقد أدت بهم هذه النظرة الباطنية إلى تأويل معاني القرآن الكريم تأويلا غريبا يتناقض ودلالات اللغة العربية".

ثم ينقل المؤلف عن الدكتور عبد المنعم النمر نماذج لهذه التأويلات فمنها ما قالوه في تفسير قوله تعالى في سورة نوح ﴿فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا﴾ (الآية ١٠) ﴿يرسل السماء عليك مدرارا﴾ (الآية ١١) ﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾، فزعموا – وهذا الزعم هو للدكتور النمر – إن المراد من قوله ﴿استغفروا ربكم﴾ اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله ﴿يرسل السماء﴾ المراد بالسماء "الإمام" والماء المدرار "العلم ينبع من الإمام ومن قوله﴿يمددكم بأموال﴾ الأموال هي العلم، و"البنين" هم المستجيبون للدعوة" "ويجعل لكم جنات" فالجنات هي الدعوة السرية الباطنية، والأنهار هي العلم الباطني.

إن المقارنة بين أسباب التأويل وأهدافه كما وردت في دراسة د. مكارم، وكما وردت في كتاب جمال بدوي، تكشف عن هوة معرفية عميقة، لا تزال تعمقها باستمرار معاول الجهل بالآخر والتشكيك به، ولا تزال الصور النمطية السلبية عنه التي زرعها هذا الجهل منغرزة في الثقافة العامة، ولا تزال تشكل الأساس الذي تبنى عليه الاتهامات وأحكام الإدانة المسبقة.

من هنا الأهمية الاستثنائية في اعتقادي لكتاب التقية في الإسلام، من حيث انه يوضح الفرق بين المسلم، أي المقرّ بالإسلام إقرارا ظاهرا يقتصر على اللسان ولا يتعدى القول، من جهة، والمؤمن، أي المصدّق بالإسلام تصديقا لا يقف عند الإقرار الظاهر وإنما يتجاوزه إلى الإيمان الباطن والعمل في سبيل الله، من جهة أخرى. ومن هنا أيضا تفسيره لذلك بقوله (ص٢٠) أن التقية قائمة على رحمة المسلم، فلا يعطى ما لا يستطيع تحمله من الحقيقة دفعة واحدة، بل يعطاها بالتدريج حرصا على رسوخها في قلبه وتمكنه منها. هنا لا بد من الإشارة إلى انه لا يوجد موقف إسلامي واحد من موضوع "الظاهر والباطن" (ص ٤٣ – ٥٣) ومن موضوع التقية. فهناك من تعامل معها بتساهل كالرازي مثلا الذي أجازها حتى دفاعا عن المال، وحتى بين المسلمين أنفسهم وليس فقط بين المسلمين والمشركين. وهناك من تعامل معها بتحفظ كالطبري وابن كثير والبيضاوي. ولان التقية لم تكن بالأمر النادر في التاريخ الإسلامي، فقد ألف أبو بكر بن دريد "كتاب الملاحن" لكي يكون دليلا للمكرهين على الكفر. فالتقية التي تمارس بكتمان الدين وحتى بإظهار الكفر لا تؤدي إلى الكفر. فالقاعدة هي "لا إكراه في الدين".

واللا هنا نافية وليست ناهية فقط. بحيث لا يقتصر المعنى على الدعوة إلى عدم إكراه الناس حتى يؤمنوا، ولكنه يتجاوز ذلك إلى إقرار المبدأ الأساس وهو انه لا يكون إيمان بالإكراه. وإذا كان الإيمان ينتفي بالإكراه، فمن الأولى أن لا يكون كفر بالإكراه. والرسول عليه السلام يقول: "إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه". وهو الذي قال أيضا "من رأى منكم منكرا فيغيره بيده. فان لم يستطع فبلسانه، وان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان".

وعلى أساس ذلك رأى حجة الإسلام الغزالي "وجوب ستر الحقيقة عمن هو محجوب عن تقبلها، فلا يعطى إلا بقدر التهيؤ المعرفي".

وقد نقل د. مكارم عن بعض العارفين قولهم: إفشاء سر الربوبية كفر (ص٥٥). ويفسر د. مكارم ذلك بقوله: "إن إعطاء الحقيقة، في نظر حجة الإسلام، يجب أن يكون في غاية من الحذر. فإفشاؤها لغير أهلها خطر كبير لا يقل عن خطر منعها عن أهلها، وذلك تقية لصاحب الحقيقة ممن لا يقدرون على معرفتها، وتقية للحقيقة ممن ليسوا من أهلها، وتقية لمن ليسوا من أهلها أن يعميهم سطوعها فيصعقوا". وما أجمل قول الإمام محمد بن ادريس الشافعي:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ولا أنثر الدر النفيس على الغنم

ولعل البحث الذي أورده د. مكارم "عن قصة موسى عليه السلام والعالِم بما لم يكن موسى النبي على علم به كما وردت في القرآن الكريم" (ص ٦١ – ٧٢) ما يكشف

عن الكثير من أسرار الحكمة من وراء كتمان المعرفة عمن ليس أهلا لها حتى ولو كان نبيا. ويمكن الرجوع إلى التأويلات الذكية والعميقة التي توصل إليها د. مكارم من خلال عرضه لوقائع تلك القصة المثيرة.

ولكن رغم كل التأصيل العلمي والأكاديمي المثبت بالمراجع الشرعية والاجتهادات الفقهية لمبدأ التقية في الإسلام، فان الدكتور مكارم يرى انه "بقبول الآخر والاعتراف به تبطل أسباب التقية إكراها، إذ يُقضى على الخوف من طغيان الأكثرية على الأقلية أو طاغوتيتها، فيفسح في المجال أمام الأقلية أن تعبر عن رأيها دون خوف أو تقاة". إن د. مكارم على حق عندما يقول أن انكفاء الأقلية عن المشاركة في الفكر بلجوئها إلى التقية سبب في الماضي ويسبب في الحاضر الشكوك المتبادلة بين أفراد المجتمع، كما سبب ويسبب ظهور "وحدات" اجتماعية متنافرة لا يربطها إلا روابط واهية قائمة على الخداع الاجتماعي والرياء والتعالي والتكاذب والولاء الطائفي. وهي كلها صفات تسم المجتمع الإسلامي بالهشاشة والضعف والتفسخ.

أما كيف تنتفي حاجة المسلمين إلى أن يكره بعضهم بعضا على رأي عقدي أو سياسي فيضطر المكرَه إلى مداراة المكرِه تقية، فبالعمل بما دعا إليه القرآن الكريم إلى كلمة سواء _ أي إلى كلمة طيبة _ كما يفسرها د. مكارم. وهو يرى عن حق "أن الكلمة السواء تكون ناتجة عن المودة لا عن الكراهية، فتتجاوز اللسان إلى القلب،فإذا هي تعبير عن الحقيقة التي تغذي الناس، كلا على قدر ما هو عليه من صحة دينه وعقله، وعلى قدر ما هو مهيأ له من الارتقاء في مراقي الإسلام".

وأود أن اردد معه تأكيده على انه "عندما تعم هذه الثقة المتبادلة بين المسلمين ولا يعود المسلم، إلى أية فرقة أو مذهب انتمى، يشعر برفض الآخر له وتكفيره إياه وبرفضه وتكفيره الآخر، عندما يصل المسلمون إلى قبول بعضهم بعضا يصلون بالتالي إلى قبولهم لمواطنيهم اجمع دونما فرق بين منتم إلى دين أو آخر".

واختم بأننا عندما نقول بحوار الحضارات لا تصارعها، علينا أن نبدأ بأنفسنا ومن داخل عقيدتنا وانطلاقا من ثوابتها الإيمانية. فالحوار من حيث هو البحث عن الحقيقة في وجهة نظر الآخر، يجب أن يكون سبيلنا إلى احترام الاختلاف والمختلف معه، والى الإقرار بان أيا منا لا يملك الحقيقة المطلقة وان للمرء إلا ما سعى، وان الله وحده هو عالم الغيب والشهادة. وهو وحده يحكم بيننا يوم القيامة فيما كنا فيه مختلفين.

سامي مكارم: "مرآة" المقابلة والمفارقة

د. أنطوان سيف*

تأبى السّيرة أن تضمرَ معاناتها، لكأنّ هذه المعاناة التي لازمت الدّرب بمنعرجاتها ومفاجآتها، جعلت للسّيرة تاريخًا جديرًا بالرواية.

إلّا أنَّ الحقيقة عندما اختارت أن تكونَ تاجَ التاريخ، أي مآله ووقوفه وموته، ارتدَّت على سيرتها وتنكَّرت لوقائعها الذّاخرة بالمجاهدة في الارتقاء بالأحوال والمقامات، وكتبت لها تاريخًا مضادًا أحرقت به وعودَها وقواعدَها ذاتها.

ذاك أنَّ سامي مكارم شذَّب سيرته سلفًا، طرد منها نواتئ الأحداث والتواريخ، بدَّد من حولها أشياء المكان والبشر الأقربين، حوَّلها من سيرةٍ شخصيَّة تتآخى فيها الإنجازات والخيبات، إلى سيرةٍ روحيَّةٍ عصيَّةٍ على المراقبة الحميمة من غير قطع وانكفاء وتوحُّد بالذات.

إلّا أنَّه عندما تفرَّد بروحه، وجد نفسَه يلهج بألسنةِ كلِّ العارفِين والصّدّيقين والأولياء والأنبياء، وأنَّه يقلع من تراثٍ عرفانيّ تثبَّت واستقرَّ على مدى قرون، وأنَّ دربَ السَّالكين التي خيّل أنَّها أكملت تعبيدها وباتت مهيَّأة لاستقبال كلّ الأجيال اللاحقة، جيلا بعد جيل، وجدت لها، مع ذلك، مهندسين جددًا يرسمون عليها خطًى جديدة، كأنَّهُم يعيدُون اكتشاف كلّ شيء من جديد!

* الحركة الثقافية في انطلياس.

يفاجئكَ سامي مكارم برغبة عارمة في الغزْل المستجدّ على نوْلٍ قديم استهلكَ كامل دلالاته ورموزه، بكفاءةِ عناصر أسلوبيَّة ثلاثة تبدو جدَّتها بتلازمها معًا في كتابه، وهي: الشِّعر الصّوفيّ، ومُضارعُه النّثري (لا من باب حلّ المعقود المنظوم)، واللوحة الحروفيَّة التي أحيا فيها الحرفَ الَّذي يُميت، وحوَّله – كما يقول أفلاطون – إلى صورة صورة.

نصوصُه في الشِّعر والنَّثر والرَّسم شديدة المطابقة كأنَّها خلاصات ذكريات، أو "تحيَّة معاصرة" لأدبٍ صوفيّ عربيّ كلاسيكيّ ترسَّخ واكتمل؛ وها هو لا يني يعيدُ بعضًا من شواهده الأكثر شهرةً، ومن غير أن يولي أيَّ شأنٍ لتراتبها التاريخيّ الّذي هو أحد وجوه اغتنائها المتصاعد.

هذه "الحقائق"، لا يزيد لصقُ التواريخ على إطلاقيَّتها شيئًا ولا خصائص الأزمنة والأمكنة.

سعى مكارم إلى "إحياء الأدب الصّوفي وتحديثه، من دون أن ينزع عن مواصفاته وخصائصه، ومن غير أن يمنحه أشكالا مبتدعة ومبتَكرة وغير مألوفة" لم يخرج عن المضامين الدينيَّة والفلسفيَّة التي باتت تقليدًا في التصوُّف الإسلامي المعتدل: كما هي صفات الله بذات الله، وأن "لا موجود إلا الله"، وأنَّ "الكتابَ يدخُل في المصحف" (وحدة الأديان) والوصُول إلى الله بالحُبِّ لا بالعقل، وأنَّ الحبَّ الحقّ حبُّ الحقّ، وكينونة الإنسان التي تغدو، عند الوصول، الكون كلَّه...

إلا أنَّ هذه المطابقة لم تطمس عنده ملامح مخصوصة، لا بل نافرة، تجافي المناخ العام للكتاب بمضمونه ولهجته. فصل "الثورة" الذي أبرز فيه الأحداث المعاصرةومسالك رجال السياسة والدِّين فيها: "هارون الرّشيد وسلالته"،

رمز الحاكم الماجن، سبب الانحطاط المعاصِر العربي والإسلامي. "رؤيا أبوكاليبس" لدينونة أخلاقيَّة تفشي عن انطباع بأنَّ مكارم يقوم هنا بضربة وقائيَّة يراها ضروريَّة، استباقًا لهجوم محتمَل، ومألوف، ضدّ أهل التصوُّف والعرفان. أو هو ردٌّ مسبَق على اتِّهام محتمَل بأنَّ التصوُّفَ هروبٌ من مشاغل النّاس وما يتهدَّدُ حياتهم في الدّاخل، وأوطانهم من الخارج. في هذا الفصل من الكتاب تبلغ اللهجةُ العدوانيَّة أوجها الانفعاليّ، وتختفي لغةُ الحُبِّ (على الرّغم من تأكيده فيه بأنَّ ثورتَهُ "ثورةُ حبّ" لا "ثورة بغضاء"!)، كأنَّهُ يستعيدُ صورة، فريدة هي أيضًا، للناصريّ وهو يطردُ بالسّوط التجَّار واللصُوص من الهيكل!

باستثناء هذا الفصل الّذي يعجُّ (اتِّهامًا) بأسماء أعلام معاصرة، وبآلات دمار حديثة: صواريخ، قنابل، طائرات، مدافع، رشاشات... وشعارات سياسيَّة أيديولوجيَّة (بعضها خرج من القاموس الأيديولوجي الراهن)، وكلام صريح عن الجواري والغلمان والغواني وبنات الهوى تحفّ بالخلفاء وأحفادهم!... فإنَّ الكتابَ، بباقي فصوله، يبدو وكأنَّه بلا تاريخ؛ صدر في أيِّ زمان، وأيِّ مكان من ديار العرب المسلمين.

إلا أنَّ جدَّته الأظهر هي في عنوان كتابه وموضوعاته المركَّبة: فقد أسكنَ مكارم "سيمرغ" فريد الدّين العطّار، ملكَ الطيور المحتجَب، على قمَّة جبل قاف، وجعلهُ مرآةً للعارفين يرونه، بعد طول سفر وشوق، ويرون فيه ذواتهم كاملةً.

لقد انحدر الإنسانُ بالثّمرة المحرَّمة، وسمَا عندما صوَّب وجهته نحو مرآة قاف، يمحو بها ذاكرته، ينقِّيها، ويتسامى بها على سقوطِه التاريخي. "إنَّ ذكرى الثَّمرة

المحرَّمة – قال برغسون _ هي أقدم ما في الذّاكرة الإنسانيَّة، الفرديَّة والعامَّة على حدٍّ سواء".

سامي مكارم العرفاني، فيلسوف الوجد، فنَّان الكلمة _ اللوحة _ الآية، شاعر الكلمة التي تماهى بها الله منذ البدء وإلى الأبد، عاشق الحقّ الأوحد، الجبليّ الرّيفيّ الَّذي حمل قرويّته معه إلى المدينة التي يمكنُ أن تراها مختبئة بخفر وراء مظهره الدائم الناقة، وفي ثنايا كلامه الَّذي لم يهجر مرَّة نبرته الهادئة والمهذّبة التي تحسب، وأنت تسمعها، بأنَّها تهمسُ باتّجاه شخص متوحِّد بنفسه في هدأة الليل "على جبل قاف"...

سامي مكارم لم يقل على مدى كتابه، وعلى مدى حياته، سوى هذه الحقيقة الإنسانية والوطنيّة الكبرى التي تعكسها المرآةُ المجلوَّة التي لا تُرى فيها الأنا ولا الأنوات ولا النّفس الأمّارة بالسُّوء ولا الرّهبة من الموت، إنَّما صفاء الحقّ يقولُه بوسائل وأساليب هو سيِّد من أسيادها.

المؤرِّخ الّذي استأنَس بروح القَوم

الشيخ غسان الحلبي*

تشكِّل المصادر الأساسيَّة لتاريخ الدروز في القرن الوسيط العمود الفقري لكتاب د. سامي مكارم "لبنان في عهد الأمراء التنوخيّين" (وهي على التوالي: "تاريخ بيروت" للأمير صالح بن يحيى، و"صدق الأخبار" لابن سباط، و"السجلّ الارسلاني" من حيث هو ثبتٌ. بيدَ أنَّ مقاربة د. مكارم لتلك المصادر تتميَّز بما يُمكن وصفُه ب"نور داخلي" متأتّ من طول مراس بحثيّ في متونها، حيث أنَّ المعالجة التاريخيَّة لها أتت استلحاقًا باهتمامات واسعة تناولت البُعد الرّوحي والفكري والاجتماعي للعشيرة المعروفيَّة في الجبل اللبناني التي قادها الأمراء التنوخيُّون من مطلع القرن الحادي عشر الميلادي إلى نهاية القرن الخامس عشر. وهذه حقبة استهلَّها الأثر الاجتهادي الفاطمي في فقه الشّريعة، واستجابة القوم له، ممّا أدّى إلى انعكاسات واضحة على نواح مسلكيَّة عدّة عندهُم، في حين أنَّ تاريخ حلف القبائل العربيَّة المسمّى "تنوخا" يرجع بالذّاكرة إلى ماض غابر امتدَّ لقرون عدَّة قبل الإسلام _ وهو أمر تطرّق له البحثُ تأسيسًا للحقبات اللاحقة _ ممّا يعزِّزُ قاعدة الدّراسة لتكون تاريخًا ل "تنوخ" ذاتها، وهو العنوان الأصل الّذي تصدَّر مخطوطة مكارم قبل أن تجدَ طريقَها إلى النّشر.

يتقصَّى الباحثُ خبر "تنوخ" من البدايات الموغلة في القدم، وأتى على ذكره بطليموس المتوفى حوالي عام ١٧٠ للميلاد، مُوردًا اسم هذا الحِلف من بين قبائل

* مستشار مشيخة العقل.

العرب في جغرافيَّته. وهو "حلفٌ أقامتهُ قبائل من الأزْد وقُضاعة وكهلان ولَخم وغيرها، فعُرِفَت إثره بتنوخ، وكان من شانه أن أعطى قبائلَ هذا الحِلف قوَّة مكَّنتها من أن تنتقلَ من البحرين إلى غربي الفرات – ما بين الحيرة والأنبار – لتسيطر على قسم منَ الطّريق التّجاريَّة التي تربط الخليج وبلاد فارس شرقًا بالبحر الأبيض المتوسِّط غربًا".

منطقة استراتيجيَّة أقامت فيها تنوخ في النّصف الأوَّل من القرن الثالث للميلاد دولةً كان أوَّل ملوكها، في ما يُروى، مالك بن فهم الأزدي. ويذكرُ الباحثُ استنادًا إلى "المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، واعتمادًا على المزيد منَ الإيضاحات من بعض أمّضهات المصادر الإسلاميَّة (الطّبري، ابن الأثير، المسعودي إلخ...) إنَّ هذه الدّولة "تبوَّأت مركزًا مرموقًا بين العرب. فخطب ودّها كلٌّ منَ الدّولتَين الكبريَين في ذلك الوقت: الدّولة الساسانيَّة والامبراطوريَّة الرومانيَّة..."، من دون أن تكون خاضعة لأيٍّ منهما.

ويستقرئُ الباحثُ بعضَ النّصوص الأثَريَّة ليعزّزَ المعطيات التاريخيَّة، وليبيّن من ثمَّ أنَّ سلطانَ المملكة التنوخيَّة امتدَّ من الحيرة شرقًا إلى بلاد الشّام غربًا إلى نجران جنوبًا، و"كانت في وقتٍ من الأوقات تسيطر على معظم الجزيرة العربيَّة... وكان لها شخصيَّتها المستقلَّة، ودورُها السياسيّ والعسكريّ الَّذي يتوخَّى مصلحتها الخاصَّة وإن كان يعودُ بالنّفع العميم لكلتا الدولتين المتصارعتَين".

يستعرضُ البحثُ من ثَمَّ أسماء الملوكِ الَّذينَ تعاقبوا على عرش تنوخ، مبيّنًا الأدوار التي لعبوها، والمآثِر التاريخيَّة التي خلّفوها، ومنها بناء قصر الخورنق المنسوب للنعمان

بن امرئ القيس، وصراع المنذر بن ماء السّماء ضدّ الرّوم من جهة، والغساسنة من جهةٍ أخرى، كذلك خبر يوم ذي قار، والموقف الشجاع لهانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيباني في وجه كسرى، عندما أبى تسليم الودائع، التي أودعها النّعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس ملك الحيرة، إليه، وانتصار العرب على الفُرس في تلك الواقعة.

ومنذ صدر الإسلام، شاركت سيوف "تنوخ" في الفتوح. فقد اعتنقَ المنذر بن النعمان الإسلام. واشترك بقيادة خالد بن الوليد في الزّحف عند قدومه إلى الشّام عون بن المنذر مع المسلمين، كما حضر مشاركًا في واقعة أجنادين بين المسلمين والبيزنطيّين سنة ١٣ للهجرة وقُتِل فيها.

وأمَّا الأمير مسعود بن عون بن المنذر فقد حضر فتح دمشق ومعركة اليرموك "وقاتل هو ومَن معهُ من لخم وجذام قتالا شديدًا" كما يقول "السجلّ الارسلاني" الَّذي يفتتح وثائقه الإثباتيَّة بذِكر تلك المآثِر.

ويُعتبَر هذا السجلّ أحد الأصُول التاريخيَّة للتنوخيّين كما سبقَ القول، إنَّما تتوجَّبُ قراءتُه منهجيًّا بعين ثاقبة، ونظر عميق يعقد المقارنة، ويقيمُ البحثَ على استقصاءٍ موضوعيّ للحوادث اعتمادًا على موازنتها بالمصادر الأساسيَّة للحقَب الزمنيَّة التي جرت فيها، وهو أمر يجهد فيه الباحثُ وسع الجهد.

بعد الفتح، كان بمعرَّة النعمان "جمع تنوخ المستكثر" على حدّ تعبير القلقشندي، وكما يقتبسُه مكارم الَّذي يستعرضُ من ثَمَّ المعطيات التي تشيرُ إلى أنَّ قبائل من تنوخ قطنت بلادَ الشّام شمالها وأوسطها قبل الفتح الإسلامي وفي أثنائه وبعده، وصولاً إلى وادي التَّيم و"بلاد الصّنوبر" على حدّ تعبير شاعر قُضاعي. هكذا، بدأت مهمَّة "المثاغرة" للإمارة التنوخيَّة التي وُصِفَت بأنَّها "غرس الملوك"، وكان من شأنها "الدّفاع عن عددٍ من ثغور دار الإسلام ضمن الدّولة الجامعة، كما كان من شأنها أن تسهمَ في طبع هذه المنطقة بالطّابع العربي".

يتحرَّى الباحثُ بعد ذلك عن الامتداد التنوخي في ساحل الشّام بعد أن ميَّز بين سلالتَين لهما هما الفرع الأرسلاني والفرع البحتري الجُميهري. ويروي في السّياق ما باشرتهُ سيوفُهُم من الدّفاع عن ثغر بيروت لقربه من هجمات المرَدة الموالين للروم، ووقائع الانتشار مصحِّحًا العديد من الأخطاء التي وقع فيها بعضُ المؤرِّخين (تحديد موقع بلدة البيرة على المثال).

هكذا تبدأ الحقب الكبرى التي شهدت أدوارًا قام بها "أمراءُ الغرب" في عهد الخلافة العبَّاسيَّة فالفاطميَّة حيثُ نقرأ عن مبايعة سيف الدولة المنذر بن النعمان بن عامر أمير الغرب للإمام الفاطمي المعزّ لدِين الله عبر قائده جعفر بن فلاح الكتامي الَّذي فتح دمشق.

ويُلفِت مكارم إلى خطأ في السجلّ الأرسلاني ــ ليس الوحيد في كلِّ حال ــ حين يقف عند الالتباس الَّذي وقع فيه البعضُ بين الأمير أبي الفوارس معضاد بن

همام الفوارسيّ، وبين الدّاعي أبي الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسي. ثمّ ينتقلُ البحثُ إلى عهد الأتابكة وصراعهم مع الفرنجة، وبدء حملات الفرنجة، ودور أمراء الغرب فيها.

وهنا يدخلُ في سياق البحثِ تاريخُ الأمير صالح بن يحيى المذكور آنفًا. ويكشف مكارم مسألة التنافس بين سلالات الأمراء إذ تعبّرُ إثباتات "السجلّ الأرسلاني" عن النسَب الأرسلاني، وتعبّرُ وثائق "تاريخ بيروت" عن النّسب التنوخي (البحتري) على رغم ارتباط النّسَبَيْن بجدٍّ أعلى هو النعمان بن المنذر بن ماء السّماء، وهو كشفٌ يسلّطُ الضّوءَ على آثار هذا التنافُس في قلب هذه المتون القديمة لجهة إغفال بعض الأحداث، أو إيلاء الأهميَّة لبعضها الآخَر.

من ثمَّ يتحدَّثُ عن أدوار الأمراء الجميهريّين في عهد الأيوبيّين، محلّلاً المنشور الَّذي منحهُ صلاح الدّين للأمير جمال الدّين حجي بن كرامة، ومستنتِجًا منه أنَّ صفةَ الإمارة أُزيلت لتوزّع إقطاعات على الأمراء. كذلك يحلّلُ منشورَ الملك الأفضل نور الدّين الأيّوبي. ثمَّ يُسهبُ في شرح دور ثالوث الأمراء جمال الدّين حجي وسعد الدّين خضر وزين الدّين صالح ودورهم المهم في الأحداث السياسيَّة والعسكريَّة التي دارت في زمنهم الَّذي شهد اضطرابات كبيرة تَنازَع فيها الأيوبيُّون والمماليك والمغول والفرنجة. دورٌ بلغَ الذّروة في المشاركةِ في المعركةِ الطّاحنة التي جرت في عين جالوت بين المماليك والتتار.

وينتقلُ سياقُ الأحداث إلى عهدِ دولة المماليك البحريَّة، وأهمُّها في ما يعني أمراء الغرب الحملة على "شيعة وباطنيَّة كسروان". كما يشرح أثَر التّرتيب العسكري الَّذي فرضهُ المماليك على فرسان الإمارة لجهةِ إدراج الجبل في النِّظام الَّذي فرضُوه على مقاطعات بلاد الشّام.

ويُرافق الأصل التاريخيّ "صدق الأخبار" لابن سباط، حقبة دولة المماليك البرجيَّة، وهو يُكمل تاريخ الأمير صالح المنتهي عام ٨٤٠ هـ. وهذه حقبة تميَّزت بانهيار أسُس النِّظام المملوكي في ما اعتبرهُ بعضُ المؤرِّخين "عصرًا مظلمًا" أضاءت فيه سيرةُ الأمير السيِّد جمال الدِّين عبد الله التنوخي بشكل لافت.

ويُسهِبُ د. مكارم في سردِ سيرة هذه الشخصيَّة المهيبة الفذَّة ليعطينا صورة تاريخيّة جليَّة عنها، وعمّا كان لها من أبعد الأثَر في تاريخ الموحِّدين ومسلكهم، مدقِّقًا في بعض المُعطيات، ومُبرزًا أبعاد النَّهضة الإصلاحيَّة المتعدِّدة الجوانب التي قام بها الأميرُ السيِّدُ وسط بيئته الاجتماعيَّة، راويًا الظروف التي دعتهُ لتركِ البلاد، ومن ثمَّ عودته، فابتلاءه بفقد أولاده وصبره وقيامه برسالته حتَّى كان "نموذجًا للفناء عن الأنا، ومِثالاً للرضى والتَّسليم..."

ويتعقَّبُ الباحثُ أخبارَ تلاميذ الأمير السَّيِّد، ومن بعدهم آخر أخبار التنوخيِّين التي انتهَت بالمأساة التي سبَّبها الأميرُ علي بن علم الدِّين الَّذي ولّاه كجك أحمد باشا على "بلا الدّروز" بقتله لآخِر سبعة أمراء منهم بعد أن باغتهُم في قرية اعبيه "ولم يترك من بيت التنوخ ولا ذكرًا يخلفهُم" على حدِّ قول الأمير حيدر الشهابي.

ويخلص مكارم إلى الاستنتاج بأنَّ التنوخيّين "قاموا بدور رئيس في بناء الشخصيَّة المميَّزة لهذه البلاد، فحافظوا على هويّتها اللبنانيَّة العربيَّة، وكان لهم الفضل الكبير في إبقاء هذه البلاد جزءًا أساسيًّا من الدولة الجامعة، ولكنَّهم عملوا كذلك على إبقاء هذه البلاد جزءًا مميَّزًا، كما كان لهم الفضل الكبير في تكوين صفاتها اللبنانيَّة ذات الفرادة الأصيلة القائمة على الانصهار الاجتماعي بين السكَّان على مختلف انتماءاتهم الدينيَّة أو العرقيَّة، ذلك أنَّ ما شاهدهُ اللبنانيُّون من منازعات قليلة بين القيسيَّة واليمنيَّة في القرنين السادس عشر والثامن عشر، ومن منازعات طائفيَّة بدءًا من القرن التاسع عشر، لم يكن موجودًا في عهد السّيادةِ التنوخيَّة على الإطلاق".

سامي مكارم في حدقة محبة منصفة

د.سعاد الحكيم*

جمعتني بالصديق الراحل سامي مكارم حقبات تاريخ نبيل، انجدلت خيوط وِصاله من مادة المشاكلة الإنسانية بيننا؛ على صعيد صلابة الالتزام الديني، ورحابة الانفتاح على كل الآخرين، والقناعة بأن المعاملات الاجتماعية والجماعية المؤسسة على القيم الخلقية العليا هي التي تولّد الثقة والمحبة بين الناس وتحقق الأمن والسلام.. مشاكلة صفاتية إنسانية تعكس للرائي لها بأن الآخر هو أنا – بالإمكان – في مسارات مختلفة وسياقات مغايرة، من وراء اختلاف التوجهات العقدية، والوجهات الفكرية، والهموم "الجهادية".

وأغمس اليوم قلمي في مداد الغياب والحضور، في مداد التاريخ والتدوين الذي يقهر الزمن بقوة بقاء الأثر، لأرسم الملامح الفارقة لإنسان سامي مكارم.. ملامح أربعة قفزت إلى إدراكي الحسي في كل مرةٍ ضمّتْنا منصّةٌ واحدة في مؤتمر محلي أو إقليمي، أو أثناء ندوة فكرية أو لقاء ثقافي أو أمسية صوفية، أو خلال مناقشة لأطروحة دكتوراة أو رسالة ماجستير في حرم جامعة من الجامعات في لبنان. هذه الملامح نفسها أكدها لي إدراكي النظري في كل مرة قرأت لسامي مكارم كتاباً أو مقالة، أو أَنْصَتُّ إلى خطاب حواراته ومحادثاته في جلسة بين أصدقاء أو في سهرة بين أقرباء.

* أُستاذه في العلوم الصوفية والفلسفة الاسلامية.

ويُشجيني اليوم أن أرسم بالكلمات صورةً لإنسان راقٍ شاعرٍ فنانٍ لطالما رسم من جسد حروف الهجاء الواردة في كَلِمِ العارفين والحكماء، فعلَ امتشاق الروح إلى جهة العلو..

ويحزنني أنه رحل عن عالمنا إلى دنيا الحق، ولا يزال في زوايا قلبي وفي طوايا فكري كلماتٌ تريد أن تُقال رغم كل الكلمات التي قلتُها أو دونتُها فيما مضى.. وأدرك الآن أن نَفَس الروح في الجسد الحي هي رشفةٌ من كأسٍ شرابُه سرمد، تعطينا نحن البشر إحساساً بالامتداد الزماني، ولكن عندما يلفّ الموت بعباءته عشيراً لنا، نصحو لحظة، لنكتشف أن عشيرنا قد رحل، قبل أن ننهي كلامنا معه.

ألملم فكري المشتّت في أودية الشَجْو والحزن، وأجمع خيالي الذي يمثّل لي في فضاء الأثير المحيط؛ وجه سامي مكارم الدائم الابتسام المطْمَئنّ الأسارير، وحضوره الهادئ اللطيف الرصين، وصوته الدافئ الخفيض الذي يموج بعبارات مُنْتَقاة من نقيّ الألفاظ، لأباشر المهمة الصعبة وهي جعل الصغير يسع الكبير، جعل أسطر قليلة تدّعي قدرتها على وسع حياة سامي مكارم الجليلة، إضافةً إلى ما أكنّه له من تقدير ومحبة.. وتتمحور أسطري القليلة حول أربعة أفكار متكاملة وشبه متدرجة، آمل أن تُبرز الملامحَ الفارقة للصديق الراحل، التي تجلت في وحدة عضوية غير منفصمة بين آفاق وأعماق، بين فكر وحياة:

المَلْمَح الأول.. المحبة الإنسانية الشاملة

يفوح من نصّ سامي مكارم، المكتوب والشفاهي، عبَقُ محبة إنسانية ينتشر بلا حدود وبدون تمييز. وهذه المحبة الإنسانية الشاملة ليست ساذجة أو مجانية بل تمثل الخطوة الأولى في مساره الروحاني نحو فناء كثافته وانتصاره على الظلمة.

يقتنع سامي مكارم بأن الحب وحده فقط هو الذي يستطيع أن يُخرج المرء من أسر الدوران في فلك أنانيته، ليُدخله في فلك المحبوب.. بالحبّ وحده يتوه المحبّ عن أنانيته طرباً، ويقول لمحبوبه: "يا أنا".

من هنا، فالحب في لغة سامي مكارم ليس تَوقاً لامتلاك المحبوب، ولا توسعة لأنانية النفس، بل الحب الجدير بهذا الاسم هو الذي يحرّر الإنسان من أنانية "أناه"، ويجعله بحكم محبوبه، يجعله يخلع صفاته ليستبدلها بصفات محبوبه، ويترك مراداته لمرادات محبوبه.

هذا الحب الذي يغيّر تكوين الإنسان هو حظ عظيم وخطر عظيم معاً: حظ عظيم إن كان المحبوب مرقاةً إلى عالم النور، وخطر عظيم إن كان المحبوب جاذباً إلى سحيق مظلم.. لذا، تجلّت دعوة سامي مكارم المتكررة في عشرات النصوص إلى "الحب الإلهي" الذي ينقّي الذات الإنسانية من تحيّزات الأنانية المسببة لأشكال الصراع والقتال والفرقة والتناصر.. ويزرع فيها رحمة عامة شاملة للجنس البشري ولأجناس الخلق كلهم.

الملمح الثاني.. محو الأنا

يرى سامي مكارم أن "الأنا" هي الحجاب الأكبر بين الإنسان وبين ربّه؛ معرفة وتوحيداً. ولذا جعل "محو الأنا" هو الخطوة الثانية على الدرب الذي اختّطه لنفسه.

وعملية "محو الأنا" ليست بالشيء الهين، ولا بالأمر الذي يحدث مرة واحدة، بل هي مسار شاق مستمر ومستدام، من ترويض الجسد على احتمال الصعاب، ومن "ترويض النفس على استهلاك ناسوتيتها".

وهذا المسار الشاق ليس ممكناً بالإرادة العاقلة وحدها بل لا بد من دعم الإرادة العاشقة. لأن العقل يسقط أحياناً تعباً أو ممكوراً به، أما الحب الذي يُعَشِّق في جدران الوجدان فهو طاقة منطلقة تمضي في سبيلها لا تلْوي على شيء، وإن تماهل صاحبها أو تردّد عن "خرق السفينة" تركته وراءها ومضت إلى المحبوب.

وهكذا يجد سامي مكارم أن الإنجاز العظيم للحب المتجذر في الجوهر الروحاني للإنسان يمحو الأنا، ويغيّر الوعي الكوني لدى صاحبه. ومتى تغيّر الوعي الكوني اتّضحت الرؤية وعرف الإنسان نفسه وربّه.. عرف ماهيته وحدوده وعرف في أي اتجاه يوجّه وجهه عابداً خاضعاً فقيراً.

المَلْمَح الثالث.. الوعي الكوني التوحيدي

إن السالك على درب تجربة وجودية – وجدانية، تنبني لبنَاتُها من فهمه الشخصي لنص قدسي بالنسبة له، لا يخلّف منجزاته خلفه، ولا يحملها على ظهره كالزاد، بل تأخذ مكانها في هرمية طبقات تكوينه الإنساني، وتظل حاضرة لا تغيب. ومن هنا، فلا يَسْلَم السالك ويكمل خطاه نحو كمال التحقق، إلا بأن يظلّ حبّه التعشّقي – الضامن لمحو الأنا – متأججاً ومحرّكاً.

وبعد هذه الخطوة الثالثة ندرك أن النص القدسي الذي آمن سامي مكارم بمعتقداته كان موجوداً قبل أول خطوة.. فالحب الإلهي الذي ملأ جوارحه وفعّل مكونات ذاته هو الحب المنصوص عليه في "شرع هواه". وأنامله التي امتدت بثبات إلى "أناه" لتمنعها من التربُّع على عرش النفس، لم تفعل ذلك بمزاج شخصي أو بفجأة عشق أو طمعاً في تحف روحانية

تنتج – حُكماً – عن المجاهدة والرياضة، بل فعل ذلك اتّباعاً لنص قدسي يؤمن به، واستمساكاً بفهم للنص جعله يقتنع أن العقبة الكؤود مع الله وبين الناس، هي الأنا..

بعد محو الأنا وارتفاع "الحجاب" يصوّر سامي مكارم شكل الوصول، ونفهم أن الواصل يتذوق حلاوة وعي كوني توحيدي ينتفي معه كل شعور بالكثرة الحسية؛ وعيٌ يفتح أعين الواصل على الحقيقة الوجودية الواحدة، فيرى كل ما كان يعدّه – من قبل – موجوداً هو من جنس الوهم، أي كل شيء خارج هذه الوحدة هو وهم.

الملمح الرابع.. ميزان ومرايا

بعد أن اطمأن سامي مكارم على نفسه ومصيره بحسب منطلقاته الإيمانية، وبعد أن رسّخ قدميه في أرض الذات، التفتَ بوجهه في الآفاق ليتواصل مع كل الآخرين. وفي الوقت نفسه، كان بارعاً في فن الكشف والستر، لذلك احتلَّ المكانة التي خولّه إياها جهاده في الدعوة إلى التوحيد الدرزي، وأيضاً قُدْرَته على جعل المعاني الباطنة تشفّ بمضامينها وهي لا تزال مستورة في حمى "التقية"، كالنار في الحجر تُدرك بالفكر ولا تُشهد.

أقتربُ من ممارسة سامي مكارم لفعل الالتفات وإنشاء الجسور، فأرى أن هذا الإنسان الهادئ، المتبسّم دوماً، قد قام بعمل تأسيسي جبار في ميدانه. لقد أرسى نهجاً يستحق أن يتحوّل إلى مدرسة في مسلك التوحيد الدرزي. ويتلخص هذا النهج بكلمتين هما: الالتزام والانفتاح، وأستخدم من أجل توضيح هاتين الكلمتين مثالَيْ: الميزان والمرايا.

إن المطالع لنتاج سامي مكارم يجد نفسه أمام مسارين في الإنتاج:

المسار الأول، مسار الالتزام، وفيه نجد العديد من الكتب لسامي مكارم تخبرنا عن الموحدين الدروز ومعتقداتهم وقيمهم الأخلاقية والاجتماعية، وفي الوقت نفسه نجد دراسات تتصدى بالنقد لما يصدر من كتب لغيره في هذا المجال. ويتجلى سامي مكارم في هذا المسار الالتزامي: دقيقاً، نصيّاً، يضع النقاط على الحروف، لا شيء عنده يشبه شيئاً آخر، بل كل نقطة هي هي ولا شيء غيرها ولا تشبه شيئاً غيرها. ومن هنا أشبّه هذا المسار الأول بمثال: الميزان، الذي يستخدمه الجواهري لوزن الذهب والحجارة الكريمة.

إن سامي مكارم هنا يتصدّى لكل من يتكلم عن مسلك التوحيد الدرزي بضبابية، أو بسوء فهم، أو يفهمه على قاعدة الآخر، يتصدى بشراسة تجمع بين معيار التميز والوضوح الديكارتي وبين قوالب كانط الصارمة. ومثال على ذلك الدراسة "النموذجية" التي نقد فيها كتاب الدكتور أنيس عبيد "الدروز وعقيدتهم في التوحيد"، ونجدها على صفحته الالكترونية، تحت عنوان "ملاحظات على كتاب الدكتور أنيس عبيد – الدروز وعقيدتهم في التوحيد". تكشف لنا هذه الدراسة عن صلابة الالتزام الديني لدى سامي مكارم، وأنه لا يحابي على ما يراه حقاً، كما يتلامح لنا فيها عمق معرفة سامي مكارم بخفايا النص التوحيدي الدرزي، مع امتلاك مكين لمعجم هذا النص بمفرداته الفلسفية – الدينية. لقد تجلى سامي مكارم في هذه الدراسة في بعده النقدي الصارم المدافع عن العقيدة، فخطّأ أنيس عبيد في مواضع وناقشه فيها وصحح له المفاهيم. مثلاً، عندما ترجم عبيد لفظ "صورة" بكلمة "image" التي هي انعكاس لمحدود حسي، بيّن له سامي مكارم خطأ الترجمة وأن الأصح هو كلمة "forme" بالاصطلاح الأرسطي بمعنى حقيقة الشيء لا شكله، ولم يقف عند هذا الحد بل فصّل الفروق المفاهيمية بين اللفظين. وهذا المثال يقاس عليه أمثلة عديدة (التوحيد، التقية، علاقة الروح بالبدن، ماهية الموت...). مما يجعل هذه الدراسة مع كافة الكتب التي تكلم فيها على الموحدين الدروز وعلى عقيدتهم في التوحيد، نهجاً متبعاً في مسار الالتزام الديني.

المسار الثاني، مسار الانفتاح على الآخر، وفيه يترك سامي مكارم "الميزان" ويفارق صفة "الجواهري"، ليتحول إلى "غوّاص" عندما ينظر في نصوص الآخرين، فيظلُّ ينقّب بأناةٍ عن فكرةٍ تشبه أفكاره ليمدّ إليها الجسور ويتواصل ويتحاور.

هنا تصبح نصوص الآخرين بمثابة المرايا التي يقف أمامها بهامته التوحيدية الدرزية، وينتظر الصوَر عند رَجْع البصر.

وقد وجد سامي مكارم في نصوص الفلسفة والتصوف الإسلامي مجالاً واسعاً للكلام عن "الذات" عبر الكلام على "الآخر".. وكان سامي مكارم منصفاً في اختيار "مراياه"، وفي الوقت نفسه كان متئداً في خطواته بعيداً عن الهوجائية يحدد بدقة جسور الحوار والتلاقي. ومن هنا اختار الكلام على سبع سيدات صوفيات عاشقات لله في كتاب "عاشقات الله". ورغم المعلومات الضئيلة التي نملكها عنهن إلا أنه استطاع أن يتواصل معهن، ويرى في "مراياهن" ملمح معتقده في الحب ودوره في امّحاء الأنانية.

أما الشخصية التي أتاحت له تواصلاً أكثر شمولية، فهو الحسين بن منصور الحلاج.. وحيث إن النص الصوفي مسبوك من إشارات ورموز، فهذا يجعله – حكماً – مفتوحاً على تعددية القراءات. وقد رأينا كيف قرأ ماسينيون الحلاج على ضوء المعتقدات المسيحية، وهنا يقرأ سامي مكارم الحلاج على ضوء معتقداته التوحيدية الدرزية.

قسم سامي مكارم كتابه "الحلاج فيما وراء المعنى والخط واللون" إلى فصلين: في الأول تكلّم على حياة الحلاج، وتماهى به في: العشق، ومحو الأنا، وصولاً إلى الوعي الكوني. وخصص الفصل الثاني لدراسة الحلاج دراسة توحيدية، وخاض غمار الدفاع عن يقينيات الذات في مرآة الآخر.

وأقول أخيراً،

إن سامي مكارم عاش حياته بيننا نبيلاً، كبيراً، مترفعاً عن سفاسف الأمور، بشوشاً لطيفاً، مخلصاً بشراسة لمبادئه، كادحاً في محو "أناه"، بريّاً عن التنافس السلبي والغيرة بين الأقران، حقق المعادلة الصعبة بين الالتزام العقدي والانفتاح الديني..

وأقول بقناعة بأن غياب سامي مكارم يترك ثلمةً علميةً في طائفته إن لم تتحول كتاباته إلى نهج يرسي مدرسة.. وفي الوقت نفسه يترك ثلمةً إنسانيةً في محيط صداقاته، لأنه قلما ننعم بصحبة إنسان يقف معنا على أناه ولا نخاف في صحبته غدر المفاجآت.

العرفان ومفهوم الخلاص
قراءة في كتاب العرفان في مسلك التوحيد*

الشيخ سامي ابي المنى*

الدكتور سامي مكارم أحد أهم المفكرين وأستاذ التصوف والإسلاميات لعشرات السنين، كتب في العرفان والتوحيد والحوار والتاريخ، وعُرف بانفتاحه ورقيّه الفكري والروحي ولطافة حضوره وعمق مداخلاته، وانطلق من مفهوم الحبّ العرفاني ليقول أن هذا الحب لا يمكن أن يعني سوى الصدق والأدب مع الله ومع الذات ومع الآخر، يقول في مقدمة كتابه "العرفان في مسلك التوحيد": "عندما تكتب في التوحيد ترى نفسك تكتب في العرفان... وقد قصدت أن أُبيّن في كتابي الصلة بين عقيدة التوحيد والعرفان... وأن أساهم في التعارف بين أتباع مختلف المذاهب الدينية وبالتالي في إضعاف عناصر التنافر والتباعد فيما بينهم وذلك من خلال اكتشاف بعضهم لبعض"[١].

هل يكون العرفان سبيلاً للتقارب بين الأديان؟ هل يكون الخلاص ممكناً من خلال العرفان؟ وهل يتحقّق ذلك على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة؟

العرفان، بنظره، مرتبة متقدمة يتوق الموحّد من خلالها إلى خلاص النفس، إذا هو التزم مسلك العرفان وارتقى بمسلكه في درجات العلم والمعرفة والتحقّق. في هذا

١. سامي مكارم، "العرفان في مسلك التوحيد _ الدرزية"، مؤسسة التراث الدرزي – لندن – ٢٠٠٦، ص ٤١.

* بحث مقدّم لقسم الماستر في العلاقات الإسلامية المسيحية في جامعة القدّيس يوسف، ٢٠١٠.

*الشيخ سامي أبي المنى ، أمين عام مؤسسة العرفان التوحيدية، ورئيس اللجنة الثقافية في المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز

المنحى يكون خلاص الإنسان الفرد، لا الخلاص كجماعة أو مذهب أو طائفة أو مشروع مرتبط بدولة أو تنظيم ما. الخلاص بمسلك العرفان والتصوّف الذي يتجلّى فيه الإنسان المحبّ، إلى أيّ دينٍ انتمى، ذلك الإنسان الذي لا يسكره إلاّ حبّ الله، والذي يجعله هذا السكر "يتفانى في حبّه للحق ويتعالى عمّا قد يسبّبه هذا الحبّ من ألم"ص(٤٤). وذلك ما وصل إليه الناصريّ والحلاّج وسقراط وسواهم ممّن غابوا عن ذواتهم فوصلوا إلى حقيقة التوكّل والتسليم والرضا والتفويض من خلال الحب الحقيقي، ولكن أي حبّ هذا وكيف الوصول إليه؟

إنّ "مثل الحبّ الحق هو كمثل حبّ الكلمة لمعناها وحبّ الدائرة لنقطة مركزها وحبّ السريرة للسرّ، وكما لا تنفصل الكلمة عن معناها والدائرة عن نقطة مركزها والسريرة عن السرّ الإلهي، كذلك لا ينفصل الحبّ الحق للحق عن الحق... وهو ما يقوله القدّيس يوحنا: "فكل من يحب فهو مولود من الله وعارفٌ به، ومن لا يحبّ فإنه لا يعرف الله لأن الله محبة"ص (٤٦).

يرى د. سامي مكارم أنّ الخلاص هو التخلص من الأنا، فلا يُحقّق الإنسان توحيده إلاّ بالتبرؤ من الأنا، "وذلك ما عناه الجُنيد عندما ربط التصوّف الحق بالتخلّص من "الأنا"، فقال إذ سُئل عن التصوّف: "هو أن يُميتَك الحق عنك ويُحييك به"ص (٥٥)، "وكما ينجذب المحب إلى محبوبه الإلهي، كذلك ينجذب المحبوب الإلهي... إلى محبوبه الإنساني، بنعمة تجلّيه له، على قدر تحمّل الإنسان لهذه النعمة... بقي على الإنسان إذاً أن يشعر بهذا التجلّي الإلهي أو لا يشعر به، فإن شعر به ارتفع بينه أهله "صورةً ناسوتيةً تتمثّل لهم صورةً للإنسان الكامل...

كانعكاس الأصل صورةً في المرآة... كما يقول محي الدين ابن عربي في كتابه فصوص الحِكَم: "فعالم الطبيعة صورٌ في مرآة واحدة، لا بل صورة واحدة في مرايا مختلفة"... وهكذا يقول التوحيد، وكما قال أبو حسين النوري، أحد العارفين الكبار: "الله لطّف ذاته فسمّاها حقّاً وكثّف ذاته فسمّاها خَلقاً"(ص ٥٩ و ٦١).

المطلوب من المرء إذاً بحسب أهل العرفان والتصوّف هو أن يُحقّقَ ناسوتيته بالجدّ والجهد وسلوك طريق الروح، متأسياً " بحكم الإنسان الكامل وبحكمته وبهديه له على طريق الحقّ... فيأتمّ به... فيصل العلم بالعمل والعمل بإخلاص القلب... أمّا من ليس له إمام فإمامه الشيطان"(ص ٧٨).

أمّا "وجه الحق فلا ينحصر بزمان ولا مكان ولا بفعل ولا بذاتية ولا بصفة ولا بجوهر ولا بنتيجة"(ص ٨٦)، إنه يحيط بالوجود بمن فيه وما فيه. والإنسان في سعيه إلى الخلاص لا يصل إليه "إذا رأى إلى الله أنه كائن بإزائه: أنا بإزاء أنت. بل يتوجب على الإنسان الساعي إلى التحقق السماح للحب الحق أن يدخل قلبه أولاً، ثم يبدأ الصراع بينه وبين الأنا"(ص ٩٠). ويوقن بذلك " أن الحب الحق هو طهارته من كل غيريّة وصفاؤه من كل ضديّة"، وأنه لا يمكن أن يتحقّق إلاّ باتّباع الفضيلة وهي "التناسق والتعادل"(ص ٩٣).

هذا الطريق إلى الخلاص يجمع المتحقّقين السالكين في مسلكه والمستمدّين من الشرائع السماوية أيّاً كانت، حيث يؤكّد التوحيد أن لا كراهية فيه لأحد، "حتى

الشرّير مهما تمادى في الشرّ لا يكرهه الموحّد، وإنّما يتبرّأ من شرّه تبرّؤاً بابتعاده عنه وعن أعماله،... لأن وجوده قضت به الحكمة الإلهية... لكي يُعرف الخير"(ص ٩٥).

إلاّ أن درجات الموحّد في التوحيد "تتوقّف على سعيه الخالص إلى التحقّق... وتحرّره من ربقة الأنا... والمكابدة في مراقي التوحيد"(ص ٩٦). كما تتوقف على معرفته بالله بأنه، بحسب التوحيد، "الوجود على الحقيقة... إذ الوجود مظهر له ومجلى له.. والحقيقة أكبر من مظهرها.. ومثل الله من الذي أبدعه كمثل المعنى من الكلمة، وكما الكلمة في المعنى والمعنى في الكلمة دون أن يكون لكلمة "في" مدلول مكاني، كذلك الوجود فيه وهو في الوجود.. المعنى داخل في الكلمة خارج منها"(ص ١٠١) وهو ما قاله الحلاّج:"ما انفصلت البشرية عنه ولا اتّصلت به".

في مفهوم الله هذا يتلاقى المؤمنون على طريق الخلاص ، طريق المعرفة الحقيقية، حيث للأنبياء دورٌ أساس في دوران نقطة البيكار حول مركزها، إذ العقل يدور حول نقطة المركز، "قال الرسول لجابر بن عبدالله: "إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيّك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله".. إنه نور النبي ونور كل نبي. وإنه يدور بالقدرة الإلهية"(ص ١٠٤). إنه العقل، بقول الرسول: "أول ما خلق الله العقل فقال: بك أُعطي وبك أمنع"، وإنه القلم لقوله تعالى: "والقلم وما يسطُرُون"، وإنه الروح "يُنزل الملائكة بالروح.."، هو أمر الله وإرادته تعالى، لقوله: "إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون..." وفي تلك الآية معنى القضاء والأمر والإرادة ومعنى الكلمة والقول، وكل هذه المعاني تجمع ما بين الأديان،

وتدور كلها حول الله الذي هو نقطة مركزها "دوران حبٍّ... وتطهّرٍ من الأنا... وهذا الحب لم يكن ليتحقّق لو لم تكن نقطة البيكار عاقلة لذاتيتها، فلا تنظر إلى هذه الذاتية على أنها مستقلّة عن الواحد الأحد"(ص ١١٠)، أي عن نقطة المركز". وهذا ما ينطبق على المسيحية في نظرتها إلى السيد المسيح على أنه كلمة الله، وعلى الإسلام في نظرته إلى الروح المحمدية على أنها الإنسان الكامل، وعلى التوحيد في نظرته إلى العقل الكلي على أنه إرادة الله وأمره، وفي هذا المنحى تتلاقى الأديان، بحسب كمال جنبلاط، حول مفهوم الله والإنسان، أي حول تحقيق التوحيد في الإنسان.

والخلاص يكمن في التزام القيم الإنسانية التي يفرضها هذا الحب الحق، بعيداً عن إشباع الغرائز وتنمية الأطماع "التي توقع العالم في فوضى التعدّي السياسي والاقتصادي والعسكري والإعلامي والإعلاني، بحيث يسود الظلم والفساد في الفرد وفي المجتمع، ليطغيا على القيم الإنسانية والفضائل الروحية والخلقية"(ص ١١٤). بهذا الالتزام يتحقق الخلاص، أي بإقامة التوازن والأنسجام في الإنسان وفي المجتمع، والارتقاء بالروح والقلب والعقل في درجات الحب والمعرفة وفي مباني النُظُم والقوانين المجتمعية والإنسانية. أي أن الخلاص يتطلب من الموحّد أن يسعى إلى أن "يحيا حياة توازن وإيمان وعدل بين العقل والقلب والجسد، فيحقّق الحكمة في عقله والشجاعة في قلبه والعفّة في جسده"(ص ١١٦).

وفي ذلك تتحقق الطمأنينة، أي الخلاص، "وهذه الطمأنينة لا يصل إليها الموحّد بمجرّد علمه بالتوحيد... ولا بمجرّد عمله..." فالعلم بلا عملٍ عقيم، والعمل بلاعلمٍ سقيم، أمّا العلم والعمل فهو الصراط المستقيم، وهذا ما يقود إلى طريق الخلاص

التي لا يمكن للمرء ان يستأثر بها دون غيره" إذ تبدو إذّاك موحشة لا أفق لها ولا قرار.

كما أن هذه الطمأنينة لا تتحقّق "إلاّ إذا تجاوز الموحّد علمه إلى معرفة يقينية... ولا يصل المرء إلى ذلك بتكلّف الحب أو بتكلّف وسائل الحب تكلّفاً... بل بالصدق... مع نفسه ومع أخيه الإنسان... فيدخل حالةً من السلام الداخلي وينعتق من استعباد الشهوات... ويرتقي في سلّم المعرفة ويحقّق الحريّة... وهذا هو التوحيد الحقّ.."(ص ١٢١و١٢٢). إن تجاوز العلم في مسلك أهل العرفان إلى المعرفة اليقينية هو كتجاوز الحرف إلى معناه أو كتجاوز مظاهر الأديان إلى حقيقتها أي إلى معنى الخلاص الحقيقي الذي يجمع أهل العرفان والمعرفة اليقينية هذه من كل الأديان، بالصدق والإخلاص اللذين يتكاملان في التوحيد وفي العرفان. هذا التكامل لا يمكن أن يتمّ إلاّ بحبّ الله، وهذا الحبّ لا يصحّ إلاّ "بحبّ من يحيط به وما يحيط به"، أي بالنظر إلى الله بالمحبة لكي يتمكن "من النظر إلى تجلّيه الوجودي، أي إلى الكون، فإلى الناس صفوة هذا الكون، وبالتالي إلى الإنسان الكامل الذي يعقل هذا الكون، بالمحبة"(ص ١٣٠). وذلك بالاعتراف بحقّ كل إنسان بالحريّة المسؤولة وبحقّه في الحياة الكريمة وبحقّه في الاختلاف، إذ لا إجبار في التوحيد، و"لا إكراه في الدين".

ويسلّط د.مكارم الضوء على شروط التوحيد منطلقاً من الصدق الذي هو أول الشروط في معناه الأشمل، أي تنقية الذات من الثنائية نيّةً وفعلاً وقولاً، "وهكذا يكون تحقّق الموحّد بالواحد الأحد على قدر صفاء مرآة قلبه" وبالتالي على قدر صدقه وإخلاصه، ومن هنا قول مسلك التوحيد: إن مثَل الصدق من الدين كمثَل الرأس من الجسد، ولا يتحقّق صدق وإخلاص الموحّد "إلاّ بأدب الصحبة اي بصدق صحبته

لأخيه الإنسان في خلافة الله في الأرض"، وفي هذه الصحبة وهذه الأخوّة "حفظ لناسوتيته الذي لا يتحقق إلاّ بصيانة الموحّد لإخوانه في هذه الناسوتية وحراستهم ورعايتهم وتزكيتهم وملاحظتهم بالإحسان"(ص ١٢٩). ولا يمكن للموحّد أن يحقّق ذلك إلاّ بصيانة القلب من الشرك بالله وبترك عبادة العدم وبالتبرّؤ من غواية الأبالسة، وبذلك "يحقّق التوحيد إذا هو حقّق الصدق وأدب الصحبة وصيانة القلب من الشرك والتبرؤ من غواية الأبالسة ومن أهل الطغيان"(ص ١٥٥). غير أن هذا التوحيد لا يتوقّف عند حدٍّ، بل أن "من حقّق التوحيد لا تهمّه شدّة أو رخاء إذ يصبح في رضىً دائم... رضى بالله، وليس رضىً عن النفس، وهو غاية لدى الموحّد.. وهو حالة مقام روحي، أي "ترك الاختيار" كما قال الجنيد ".. أي محو إرادتك بإرادة الله"(ص ١٦٢و١٦٧)،والرضى ثمرته المشاهدة، والمشاهدة أسمى مراتب العرفان". وفي هذا المسار يصل الموحّد في مسلكه العرفاني إلى الشرط السابع الذي هو التسليم، يعني "تسليم الذات إلى الحقّ. وهو حركة دائمة ومسافرة مستمرة في مراقي تعاليمه وزيادة من معرفته وسكينة وطمأنينة في ملكوته"(ص ١٦٨)، "ولا يمكن للموحّد ان يدخل غلى التسليم إلاّ من باب الرضى.. فإذا كان الرضى قبولاً فإن التسليم فعلٌ".

"من يتبع النور الذي في داخله ينجو"، هذا كان شعار المسيحية في القرون الأربعة الأولى، التي تقول إن "كل إنسان يدخل في الدائرة الإلهية وفق زمانه ومحيطه وديانته"، ويقول كارل بارت: "إن الله يتأنّس حتى يتألّه الإنسان"، ويتكلم أغسطينوس عن تحقيق صورة الإله في داخل الإنسان، أي عن حلول النعمة التي لا يمكن للإنسان أن يحقّقها بجهده الخاص، ويتحدث المجمع الفاتيكاني الثاني عن

الخلاص خارج الزمان والمكان، وهو ما يشير إليه البابا بولس السادس بالحجّ على طريق الحقيقة، حيث أن المؤمن لا يمتلك الله بل يسعى إليه باستمرار. كل هذه المواقف والإشارات تدل على عمق المسيحية في مفهومها للإنسان والله، وهي التي تعتبر الإنسان أفضل انعكاس لصورته تعالى، وهذا ما يجسّده الإسلام في اعتباره إيّاه خليفة الله في الأرض، وإذا كانت المسيحية تقول بأن الروح يهبّ حيث يشاء، أي حيث يشاء الله وحيث يشاء الإنسان بعده، فإن القرآن الكريم يقول:"ويسألونك عن الروح قل الروحُ من أمر ربي..."، إنها إرادة الله ورغبة الإنسان، إنه أمر الله وتوق الإنسان، وما على الإنسان إلاّ أن يطهّر ذاته وقلبه ويرتقي في معارج العرفان، أي يسعى إلى الله، وفي هذا المعنى التوحيدي العرفاني تلتقي الأديان وتسير بإنسانها الواحد إلى الخلاص، وليس ثمّة ما يتناقض أو يُناقض، فهل لأتباع الأديان أن يستفيدوا من خبرات بعضهم البعض وأن يتّخذوا المسافرة في عمق الأديان سبيلاً إلى بلوغ الحقيقة بدلاً من إضاعتها في متاهات المظاهر والأشكال والتأويلات، وأن يُدركوا، بالتالي، أن الحقيقة هي الخلاص.

مدخل لقراءة جديدة في كتابات المرحوم الدكتور سامي مكارم التوحيدية

أ. د. محمّد شيّا*

تميّز (المغفور له) الدكتور سامي مكارم في الحقل التوحيدي، فكان رائداً في كل ما كتبه في موضوع "مسلك التوحيد"، بدءاً بكتابه الأول: "أضواء على مسلك التوحيد"، الذي مهّد له المرحوم كمال جنبلاط بمقدمة فكرية طويلة غدت جزءاً لا يتجزأ من الكتاب، ثمَّ في ما تلاه من كتبٍ وكتاباتٍ تعمّقت في سبر أغوار "مسلك التوحيد" وتوضيح دروبه.

يطيب للمرحوم الدكتور مكارم أن يستشهد بقولٍ لفانديك، العالِم وأحد مؤسسي الجامعة الأميركية في بيروت في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر: "تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرّة لفظ سوءة ولا قصة فيها شيء من الخلاعة" وهو يقصد بالطبع معشر الموحدين (الدروز)، الذين يمثّلون مسلك التوحيد ويرتقون في درجاته.

لم يرمِ المرحوم الدكتور مكارم من الاستشهاد باستمرار بنص فانديك مجرد استحضار شهادة أخرى في السمعة الأخلاقية العطرة للموحّدين (الدروز)، والتي كانت وإلى فترة طويلة الأقرب ربما إلى الصراط المستقيم.

* أستاذ الفلسفة الحديثة،عميد سابق لمعهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية.

ما رمى إليه الدكتور مكارم، وفق قراءتي، هو الإشارة منذ البدء، ومباشرة، إلى الفكرة الأولى في موضوع مسلك التوحيد، وهي أن "التوحيد" مسلك وقبل أن يكون _ إذا رغب البعض _ فكرة أو معتقداً يقوم على النظر العقلي من جهة، وعلى الالتزام العملي الأخلاقي الصارم من جهة ثانية.

هوذا ما اصرّ عليه المرحوم الدكتور مكارم في المبررات التي أوردها في ما كتبه في المجال التوحيدي التي هي محور هذه المقالة، كما في محاضرات وأعمال أخرى له. فالقرون العشرة التي انقضت على إنطلاق الدعوة، وقرون التأخر المادي والجمود الفكري وما رافقهما من إقفال لباب القياس والاجتهاد والقعود عن التجديد والمبالغة في الظاهر على حساب الجوهر، والتي مهدت في الواقع لنجاح الغزوة الكولونيالية التي تعرضت لها بلدان العرب والمسلمين في القرنين الأخيرين، ناءت بكلكلها الثقيل ولفترة طويلة على صدور العرب والمسلمين، وعلى عقولهم، ومواقفهم العملية، والتزامهم الفكري والسلوكي بروحية المعتقد _ لا بألفاظه وحروفه فحسب.

وإذا كان الجمود ذاك قد انتهى إلى ما انتهى إليه من غلبة للحرف على الروح عند الجميع تقريباً، فهو قد طال أيضاً جمهرة الموحدين (الدروز) بالمقدار نفسه، فغدوا كما سواهم، ولقرون عدة، أهل تقليد لا تجديد، واتّباع لا إبداع، فانصرف غالبهم عن الجوهر لصالح العرَض، وعن المعنى لصالح المبنى، وأخذوا بالتالي في شؤون دنياهم ودينهم بالكثير من الأوهام وغفلوا عن الحقيقة — وكانت بين أيديهم لو كانوا حقاً ينظرون أو يعقلون. وبهذا المعنى، لا يتردد المرحوم الدكتور مكارم في القول أن كتاباته ليس للحجاج أو المماحكة النظرية، بل هو موجّه بالدرجة الأولى إلى "النشء الدرزي

[الذي] جهل الكثير من أصول معتقده وما يعلّمه هذا المعتقد من أمور تتعلق بالله والإنسان. وهو بسبب جهله هذا فقدَ كثيراً من معنى الرسالة التي يدعو إليها هذا المعتقد من خلال دعوته إلى التوحيد، وتعلّق بحبال من التقاليد والعادات لا تلبث أن يصيبها الوهن كلما ابتعد الإنسان عن بيئته أو كلما تحرر منها. وهكذا أصبح الدروز اليوم في فراغ عقلي وروحي خطير. فهم في غالبهم يغرّبون عمّا يعلّم هذا المعتقد من خير وحق، وعمّا يدعو إليه من محبة وتوحيد بالواحد الذي يحتوي الوجود، وهو توحيد يوصل إلى سلام دائم، سواء أكان ذلك في الذات الإنسانية أم في المجتمع الإنساني... ويصبح إنساناً يتمتع بخلالٍ خلقية وشخصية، وبقيم عقلية وروحية تخوّله أن يكون حرّاً في تفكيره ومشاعره، وأن يكون سيّداً على نفسه، وأن يكون مواطناً في بلده فاضلاً، وعضواً في مجتمعه صالحاً ...

إن ما كتبه د. مكارم في موضوع مسلك التوحيد ليأمل أن يشارك في ملأ هذا الفراغ، وفي تعريف الموحد معتقده، وفي معاونته على اكتشاف ذاته، وعلى تحقيق إنسانيته."

بأسلوبه البسيط البليغ، يبسط المرحوم الدكتور مكارم، وفي آن معاً، أسباب الحاجة الملحة لدى النشأ الدرزي الحديث لاستلهام حقيقة معتقد التوحيد من جديد، والسلام الروحي والمادي الذي يبعثه ذلك في شخصية الناشئ الدرزي وسلوكه.

بين الحدّين، الحاجة للأخذ بالتوحيد من جديد، والانعكاسات الفكرية والعملية الخيّرة لذلك، يقع الجهد الذي يملأ به الدكتور مكارم كتبه التي تحاول عرض العقيدة "كما هي عليه"، أي استناداً إلى مصادرها الأصلية وتعاليمها الخالصة، لا في ما "قاله الناس وما يقولونه، ولا في ما نسبوه إلى هذا المعتقد وأتباعه وما ينسبونه". وعليه يجري البيان في ما كتبه لا على الأقاويل والظنون، بل على الحقائق، أي على: "المعتقد ذاته، وفي فلسفته ذاتها، وفي تعاليمه ذاتها، وفي نظامه ذاته، كما أراد مؤسسو هذا المعتقد أن تكون فلسفته وتعاليمه ونظامه، وكما اعتقده أولئك الذين أقاموا بناءه."

إذا كان ذلك هو المضمون الجليل، "السامي"، للعمل الذي نحن بصدده، فإن الشكل فيه لا يقل عن ذلك أهمية ودلالة. فقد حرص المرحوم الدكتور مكارم، أن يخاطب قارئه، ورغم صعوبة الحقل، بأقل قدر ممكن من التعقيد، الذي كان سيزيد الشقة التي لا تني تتباعد بين النشء الجديد ومعتقده الديني وبسبب من العجز عن مخاطبة هذا النشء بلغته ووفق مدركاته. استخدم المرحوم مكارم في كتاباته، عامداً، شكلاً من التعبير السلس المباشر، الجميل إذا شئت، والقريب بالتالي من لغة التعبير "الحديثة" لجمهور من المتعلمين هو الغالب اليوم في أوساط الشباب الدرزي. وتظهر هذه القصدية جلية في قول د. مكارم: "إنّ ما أكتبه يتوخى كذلك تجنب التعقيد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويحاول مخاطبة القارئ الواعي بتعابير قريبة من عقله وقلبه وثقافته تجد إلى فهمه سبيلاً لا يكلّفه مشقة ولا عناء، أو لا يكلّفه من المشقة والعناء إلا القليل... ذلك لأن الكتاب إنما يقصد إلى تعريف المعتقد التوحيدي ... ليس للعلماء والمتخصصين فحسب، بل لذلك القارئ الذي تشغله شؤونه وأعماله عن التبحّر في هذا الموضوع والتفرغ إليه. وأكاد أقول إنه في ما كتبه ليقصد هذا القارئ قبل أن يقصد ذلك العالم المتبحر المتخصص."

لكن بساطة التعبير ومباشرته إنما كانا في الواقع المدخل السهل الجاذب إلى العمارة الفكرية 'المكارمية'. وهنا يكمن نجاح منهج الدكتور مكارم في كتاباته التوحيدية. فالقارئ الذي أنِس لها فدخلها على متن ما هو عادي ومألوف وبسيط من المفاهيم والأساليب التعبيرية، سريعاً ما ينجذب إلى ما هو أعمق أو أعلى في العمارة الفكرية المكارمية. وسيجد نفسه بالتالي، وبخاصة حين ينتهي العرض التاريخي، يتقدّم مع المؤلف في ما يتجاوز الحرف الظاهر المباشر نحو عميق مضمون عقيدة التوحيد وما يحتاجه ذلك من مصطلحات مناسبة، ومعان دقيقة، وسياق منهجي منطقي حيناً، وما يتجاوز أو يتعدى السياقات المنهجية والقياسات المنطقية في أحيان أخرى. عند هذه المرتبة تنشأ سعادة أخرى مختلفة لدى القارئ، فيحل الإعجاب محل اليسر والسهولة والبساطة، وتتحول إلى دهشة عارمة حيال كل ما يشاهده، فيمرّن أحاسيسه قبل أفكاره، بل يمتّعهما، بما هو جميل وعميق وجليل إلى الدرجة التي تدفع القارئ لا إلى محبة النص المكارمي فحسب، وإنما إلى حدود التماهي فيه ومشاركة صاحبه شغفه وشوقه إلى التوحد بالحقيقة التوحيدية الفلسفية، ثم إلى تجاوز الحقيقة نفسها نحو رحاب الحق الفسيحة.

لقد أدّى المنهج وظيفته بكل اقتدار، وبات في وسعه الآن أن يحمل القارئ إلى قلب العمل الدقيق وإلى معانيه وأفكاره وخلاصاته.

بعد هذه الجولة الأولية في طبيعة منهج المرحوم الدكتور سامي مكارم، يمكننا إذاً التقدم خطوة إضافية نحو مضمون كتاباته التوحيدية القيّمة. كيف يرى د. مكارم إلى الخطوط الأساسية المميزة لهوية المعتقد التوحيدي.

تكلم د. سامي مكارم حاسماً عن تاريخ الدعوة، ولكن على كثير من بلاغة الاختصار، بما يتجاوز مجرد التأريخ، إلى البدء برسم التعاليم المحددة للمعتقد – والتي يبسطها تباعاً في كتبه ومؤلفاته، وعلى قدر ما تحتمل إمكانات اللغة واللفظ والتعبير.

يولي د. مكارم أهمية خاصة لتحديد الهوية الجوهرية للمعتقد التوحيدي، فنقول في اختصار بليغ "باعتباره المعتقد أولاً مسلكاً لا فرقة دينية تقليدية، وكامتداد، ثانياً، للمسالك التوحيدية القديمة وتطوير لها". ويتطرق بداءة إذاً لإشكالية دائمة تتعلّق بالمعتقد التوحيدي (الدرزي)، ليس فقط في كيفية النظر إلى هوية المعتقد من الخارج، وإنما أيضاً في كتابات المؤلفين الدروز أنفسهم. فستر المعتقد، وطبيعته المتدرجة المركّبة، على تدرج مراقي أو درجات نظر أو فهم الداخلين إليه والعارفين فيه، سمحا في الواقع بأكثر من مقاربة واحدة للطبيعة الأساسية في المعتقد، وفي ما خصّ الأسئلة الأولى على وجه التحديد: هل هو دين جديد بالمعنى الكامل؟ أم مذهب إسلامي آخر؟ أم فرقة دينية خارج المذاهب؟ أم هو مسلك وطريق من طرق التوحيد والعرفان التي عرفتها البشرية في مراحل تطورها الروحي المختلفة؟ ولا حاجة هنا لاستذكار الكم الهائل من الاضطراب الفكري الذي شاب، ولا يزال، الكثير من الكتابات التي تناولت عقيدة التوحيد، التي أغرت بجمالها وبساطتها عدداً من المبتدئين، فخاضوا في ما لا يفقهون وانتهوا بالتالي إلى أحكام مشوشة بل إلى أغاليط وتناقضات _ بنيّة بريئة حيناً وبخبث وإسقاطات جائرة مسبقة حيناً آخر.

يحسم المرحوم الدكتور مكارم في أعماله التوحيدية دائماً _ كما فعل على نحو مشترك مع المرحوم كمال جنبلاط في عملهما الأول _ سؤال الهويّة الأول، هوية

المعتقد، فيقول باختصار وبثقة العالم المتبصّر العارف:

"مسلك التوحيد، كما يظهر لنا، هو استمرار للمسالك التوحيدية القديمة وتطور لها. وقد استبطنته الشرائع الإلهية التي تتالت في التاريخ، حتى إذا ما جاء الإسلام دلّ على التوحيد ودعا إلى اتّباعه."

هو إذاً مسلك في الحكمة والعرفان، ليس ديناً جديداً بالتأكيد، ولا حتى مذهباً دينياً تقليدياً، بأية صورة من الصور. وبهذا المعنى فمعتقد التوحيد أقرب لأن يكون ـ في جانبه النظري ـ مصباً وملتقى لروافد التوحيد، المترقرقة حيناً أو المتدفقة حيناً آخر، والقادمة من أولى الحضارات، ثم في خلالها، واحدة واحدة، ولتكشف عن نفسها أخيراً في الإسلام على نحو أكثر وضوحاً واكتمالاً. فجذور التوحيد، بل والكثير من أصوله، تجدها على نحو متقارب متعاقب بدءاً من قصيدة أمحوتب (هرمس، أو إدريس، أو أخنوخ) التوحيدية التي كانت (مطلع الألف الثالث قبل الميلاد) الإعلان التوحيدي البشري الأول خلف أو فوق مظاهر التعدد الخادعة. وتلا ذلك ما يشبهها في الحضارات السومرية والبابلية والهندية والفارسية القديمة وسواها، وصولاً إلى فيثاغوراس الحكيم (٥٨٢-٥٠٠ ق.م.) المؤسس "الفلسفي" لفكرة التوحيد، أستاذ سقراط وأفلاطون، والذي جسّد كشوفاته التوحيدية في جمعيته السرية، التي أخذت على عاتقها الكشف عن العلم ومن العلم بما يتناسب ومستوى المتعلم أو المريد، مرتبة بعد مرتبة. وستتكرر على مدى الخمس والعشرين قرناً اللاحقة التجربة نفسها في عشرات الفرق السرية، الباطنية والغنوصية والإشراقية والصوفية والتوحيدية، في كل حضارة تقريباً، قديمة وحديثة. فقد اعتقد على الدوام عارفون

ومعلمون كثر أن من الحقائق التوحيدية ما يكون عاماً مشتركاً ولا خلاف فيه، إلا أن منها ما يمكن أن يساء تفسيره لو ألقي بين يدي غير المهيأ أو المستعد بما يكفي، فكرياً وأخلاقياً، لتقبل الحقيقة على نحو أكثر شفافية أو "داخلية" مما تعوّد أو أَلِف المؤمنون العاديون. لذلك يجري أحياناً، وبسبب من التسرّع وعدم الروية، رمي هذه الفرق أو المسالك أو الاختبارات العرفانية العميقة بالكثير من الاتهامات غير الصحيحة والتي لا تمت إلى الواقع بصلة. يقول المرحوم الدكتور مكارم في هذا المنطلق الأولي الأساسي:

"وهكذا فقد درجت مسالك التوحيد عبر التاريخ على تقصي هذا العرفان الأصيل وعلى تنميته في نفوس المتهيئين له. وحرصت هذه المسالك، عندما كانت ترى ذلك ضرورياً، على ستر هذه الحقائق الأخيرة عمّن لم يتهيأ عقلياً وروحياً وخلقياً لتقبلها، وذلك إشفاقاً على من يتسنّى له الإطلاع عليها دون أن يكون مهيأ لها، فيسيء فهمها ويعدو على نفسه وعلى هذه الحقائق وعلى القائلين بها أو الداعين إليها، كما ورد على لسان هرمس... وقد درجت مسالك العرفان عبر التاريخ، منذ ما قبل فيثاغوراس، على عدم إفشاء هذه الحقائق الأخيرة، إلاّ للمتهيء روحياً وخلقياً وعقلياً لها..."

من هذه المقدمات يتقدّم المرحوم الدكتور مكارم ليستخلص بثقة أن المسلك التوحيدي (الموسوم خطأ بالدرزية) إنما هو امتداد أو تطوير لتحولات فكرة التوحيد،

والتنزيه والتجريد الكامل للألوهة، كما تدرجت عبر الحضارات والديانات، خارج أشكال التقليد، وخارج كل ثنائية أو ازدواجية أو كثرة أو تشبيه أو تجسيم قد يتأتى من شبهة أو تناظر أو مقارنة. وعليه يخلص الدكتور مكارم إلى ما يلي:

"وهكذا فإن الموحدين يعتقدون أن هذا المسلك التوحيدي العرفاني بدأ منذ أن بدأ الإنسان العاقل، وأخذ مفهوم الإنسان له يتطور عبر الأزمة والأدوار، وقد استبطنته الشرائع الإلهية والمسالك العرفانية حتى برز في شكله الأخير في الإسلام، وترعرع في الشيعة، وتبلور في الإسماعيلية، وامتازت معالمه وبدت في دعوة التوحيد، وذلك في أوائل القرن الخامس للهجرة، أي في الربع الأول من القرن الحادي عشر للميلاد." (ص٢٩-٣٠)

وعليه، نقول، ليس من باب المصادفة أن تكون دعوة التوحيد قد ظهرت في الزمان والمكان المحددين بالذات، أي بعد أن بلغ التقليد حدوده القصوى وكشف عن إمكاناته كلها، وبعدما بات غير ذي فاعلية أو تأثير في واقع بلاد المسلمين التي نهشتها الانقسامات السياسية والمذهبية حتى العظم، وبعدما بلغ الفساد والنأي عن أصول الدين حدهما الأقصى.

وليس من باب المصادفة، أن تظهر دعوة التوحيد من ثمة، بعد مقدماتها، في كنف خليفة فاطمي مسلم إسماعيلي مثقف طاهر، وأن يكلف بها عشرات الدعاة الذين تثقفوا وعلى

نحو كاف من كل ديانة وثقافة وعلم، والمهيئون إلى ذلك نفسياً وأخلاقياً للتماهي في هذا الشكل الأخير من اختبارات الحقيقة والعرفان.

وليس من باب المصادفة أخيراً أن تتجذر دعوة التوحيد في المناخ الثقافي المتنوع المنفتح الذي كان يرعاه الخليفة شخصياً، يسهم به في مجلس الخليفة، كل صاحب علم، وكل منتم إلى ثقافة، أو حضارة، أو لغة، أو دين، أياً تكن أو يكن، تسندهم دار عامرة زاخرة بكل الكتب المعروفة آنذاك، "دار الحكمة"، يشرف عليها الخليفة شخصياً، ويجعل في خدمة مريديها عشرات الورّاقين والنسّاخين، عدا الخدمات الأخرى.

في هذا المناخ، الديني والسياسي والثقافي، ظهرت دعوة التوحيد؛ وكان مقدّراً لها أن تكون البيان العلني الأخير (الممكن) للحقيقة، إلا أن قوى الاستبداد والتقليد والسلطة والقوة أجبرتها من جديد أن تعود إلى تقاليد العرفان الدائم في السرية والرمزية وأن لا تظهر من تعاليمها إلا المقدار الذي يأتلف مع أفهام العامة ويتناسب وشروط اللحظة. وهذا ما حدث.

هي ذي بعض المفاتيح والمقدمات الأساسية التي تفيد في مقاربة وفهم نص المرحوم الدكتور سامي مكارم في كتاباته التوحيدية "، والتي لن تكفي بالتأكيد مقالة واحدة في سبر عميق غوره ودقيق تفصيله. وأفضل ما أختم به تقديمي لقراءة نصوصه

موضوع هذه المقالة، هو أن أنقل عن المرحوم الدكتور مكارم "الخلاصة الأخلاقية"، إذا صح القول، لمسلك التوحيد، التي هي الثمرة العملية التي يعيش فيها السالك في درب التوحيد والعرفان والحقيقة:

"وهكذا تكون معاملة الموّحدين... قائمة على المحبة والألفة ووحدة الكلمة والرأفة ولين الجانب، بل قائمة كذلك على إحقاق الحق، وعلى السعي إلى تكوين مجتمع فاضل يقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرتكز على العدل والتوحيد الحق، ويستنير بالحكمة الإلهية، ويهتدي بالعقل والعلم والتواضع والحلم. إنه مجتمع يتوخّى أفراده معرفة النفس ويسعون إلى تحقيق العدالة ويرمون إلى التحر من "الأنا" ويتوجهون في محيّاهم إلى التحقق بالواحد الأحد."

وأخيراً، لم يكن المرحوم الدكتور سامي مكارم، وكما في كل شأن، يكتب بقلمه، وإنما بشخصه وروحه ومشاعره – المحبة، المتدفقة، السامية، الشفافة – والتي أحالت شخصيته، على ما شاهد كل من عرفه، إلى آيٍ في تطابق الخارج مع الداخل تصعب محاكاته، وكذا في الوحدة التي جمعت الأنا الفردي إلى الحقيقة، فكان ليس فقط عارفاً للحقيقة، بل بات مرآة مجلوّة لها، وبات من خلال معرفته حرّاً من كل قيد أو أسْر، واتّحت المسافات بين العارف والمعرفة، فسمت إنسانيته وتحققت على أكمل وجه متاح.

صفاء وارتقاء

د.انطوان مسرّه*

سامي مكارم هو من الأعضاء المؤسسين للمؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم التي نشأت في الثمانينيات ونالت سنة ١٩٩٧ جائزة برنامج الأمم المتحدة الانمائي ومؤسسة جوزف ولور مغيزل "للسلم الأهلي وحقوق الانسان".

أذكر ذلك لأن سامي مكارم، في خضم الحروب المتعددة الجنسيات في لبنان في السنوات ١٩٧٥_١٩٩٠ والحروب "من أجل الآخرين"، حسب تعبير غسان تويني، ليس رائد معرفة وعلم فحسب بل لبناني ملتزم في الحياة العامة يمارس التزامه بصبر ومثابرة وتجرد وأرقى مستوى العمل الوطني.

في أقصى الأوضاع حيث انتشرت شعارات نقض ميثاق ١٩٤٣: "اتفاق بين رجلين"، "مات الميثاق وقبرناه"، "وانتهى عهد التسويات"، و"الآن بدأت معركة الجبل"، "ولينتصر من ينتصر"...، لم يرد الى ذهني الا سامي مكارم لأطلب منه الكتابة عن معنى "الميثاق".

الميثاق، كما يقول سامي مكارم، "يربط ويوثق في عهد هو أبعد من التعاقد".

---

* عضو المجلس الدستوري.

استاذ في الجامعة اللبنانية (١٩٧٦-٢٠١٠) وفي جامعة القديس يوسف، منسق الماستر في العلاقات الاسلامية والمسيحية. جائزة الرئيس الياس الهراوي: لبنان الميثاق، ٢٠٠٧.

ولعبارة ميثاق تراث اسلامي وعربي عريق نستخف به في التعامل اللبناني مع المواثيق[١].

في نص آخر خلال الندوة الأولى للمؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم يطرح سامي مكارم موضوع التوحيد في الوطن اللبناني بالذات:

"وجد للبنان دور خاص في دعوة التوحيد العربية وبالتالي وجد لهذا البلد دور خاص في الاغتناء من هذه المصادر التي تستقي منها العروبة الحق. وأعني بها المصادر الروحية التي يوفرها الاسلام والمسيحية على السواء".

ويطرح سامي مكارم قضية جوهرية منذ ١٩٨٨ وهي "اعادة تأهيل هذا الشعب اللبناني ثقافيًا وروحيًا وقوميًا وسياسيًا وحضاريًا ويعاد تأهيله فوق كل شيء وطنيًا على اسس صحيحة قائمة على دولنة مفهومه الوطني..."[٢]

فكر سامي مكارم الميثاقي وادراكه بالعمق لضرورات "دولنة" الوطنية اللبنانية ينبعان من ارتقاء روحي يفوح من شخصيته في كل كلمة ولقاء معه ومع كل انسان.

تعرفت بالعمق على مذهب التوحيد من خلال سامي مكارم وبدون أن يحدثني عن مذهب التوحيد. انه يعيشه في عمق ايمانه الجامع ومعايشته كبار المتصوفين.

١. سامي مكارم، "الميثاق: عهد ووثاق"، في كتاب: انطوان مسرّه (اشراف)، مواطن الغد (نماذج في الثقافة المدنية)، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية NED، ٣ أجزاء، ١٩٩٥_ ١٩٩٨، المكتبة الشرقية، الجزء ١، ٥٠٠ ص، ص ٢٠٧-٢١٦.

سامي مكارم هو من القلائل الذين ترتاح اليه نفسي. اعتزل معه كل الشكليات والعبارات الشكلية والتحفظات... وأتحدث معه واستمع اليه في حالة اصغاء كلية.

انه يدرك تفاعلك معه فيتابع في جو من الاحترام المتبادل ودون جهد مصطنع في الاقناع لأن الحقيقة النابعة من القلب تحمل بذاتها قوتها في الاقناع، في حالة اندماج بين الفكر والروح.

سامي مكارم هو تجسيد لما نحتاج اليه اليوم في استعادة الأديان، وكل الأديان، روحانيتها الجامعة. يقول بيار تيار دي شاردان: "كل من يرتقي يلتقي". "Pierre Teilhard de Chardin" Ce qui s'élève converge

ليس الدين عقائدية مغلقة وليس العلم معرفة ووجاهة وموقعًا اكاديميًا. وليست العلاقات الانسانية مصالح.

كل ما يكتبه ويعلمه ويرسمه ويقوله سامي مكارم نابع من مقاربة انسانية ومحبة هادفة الى الخدمة والتواصل والارتقاء. وحيث ان التعبير الكتابي والكلامي محدود بطبيعته، يرتقي سامي مكارم الى الفن والى الكلام المرسوم ليخرق جدار الكلمة وصولاً الى اللامحدود وعطشًا الى اللامتناهي.

سامي مكارم هو المعلم والباحث والمؤمن والمواطن الميثاقي اللبناني في كل أبعاد لبنان الاصالة والدور والرسالة الحضارية.

٢٠١٣/٧/١٠

٢. سامي مكارم، "العروبة والمسيحية والاسلام في لبنان"، في كتاب: الحق في الذاكرة، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، المكتبة الشرقية، ١٩٨٨، ٣٦٠ ص، ص ٣١٥ _ ٣١٨.

العرفان في مسلك التوحيد (الدرزية)

القاضي عباس الحلبي*

كتاب العلامة الدكتور سامي نسيب مكارم "العرفان في مسلك التوحيد (الدرزية) الصادر عن مؤسسة التراث الدرزي (لندن) ٢٠٠٦، ٢٨٨ صفحة" التي أسسها ويرعاها الشيخ سليم خير الدين بغيرته وأريحيته واندفاعه، يهدف بحسب المؤلف إلى تعريف القارىء بمسلك التوحيد (الدرزية) خصوصاً في بعده العرفاني الإسلامي والآخر في تعريف المنتمي إلى هذا المسلك بحقيقة العقيدة التوحيدية، وذلك بطريقة تميزت بالصدق والوضوح والعمق والسعة في الرؤيا والسلامة والبلاغة في التعبير، مستنداً إلى المفاهيم العرفانية وفق عقيدة التوحيد وإلى القرآن الكريم والحديث الشريف وتعاليم الأولياء الموحدين وأقوال نخبة من العلماء وكبار أهل العرفان، بحيث يشكل هذا الكتاب وسيلة للتواصل والتفاهم بين مختلف العقائد والأديان وهو من هذا الوجه عبارة عن تعريف بمناخ روحي صاف مفعم بحب الله الذي هو ذروة التوحيد على ما جاء في تعريف الكتاب.

ولعلَّ تدرج المؤلف في إصدار الكتب التي يعالج المناحي الروحية والعرفانية الإسلامية والصوفية والتوحيدية يجعل من هذا الكتاب، وأنا المتابع لكتابات الدكتور سامي مكارم، تتويجاً لجميع مؤلفاته وعلامة مضيئة في مناخ الجهل والتشويه لحقيقة معتقده، بسبب من تلكؤ أصحاب المعرفة التوحيدية عن تقديم أنفسهم، فيتركون الباب واسعاً للآخرين الجاهلين لحقيقة المعتقد ومراميه الإنسانية والروحية للتشويه والتشويش.

* رئيس الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي.

فمن أقدر من هذا العالم الذي كرّس حياته ومعارفه لسبر غور الفضاء الروحي والعرفاني الذي نشأت دعوة التوحيد في ظلّه. ومن أكثر منه معرفة في باطن المعتقد وهو الذي لم يجف حبر كتابه الآخر حول "التقية في الإسلام" ليظهر أمام الجميع ان التقية ليست وقفاً فقط على الفرق الباطنية فيه.

وقد أشار المؤلف إلى هدف الكتاب في مقدمته بأنه عمل على بيان "الصلة بين عقيدة التوحيد والعرفان" عله يستطيع أن يشارك في تصحيح تلك النظرة السائدة بين كثير من الناس والناتجة عن فهم سطحي أو خاطىء لكل من التوحيد والعرفان "(ص ١١) محترماً سريّة بعض المخطوطات القديمة والأصول التوحيدية وقدسيتها لما فيها من فتوحات عرفانية لا تُنشر إلا على من عاينها وعاناها وكابدها واختبرها أو اعتقدها وأيقن بها ووطد العزم على ارتقاء مراقيها"، "(ص ١٢) مستشهداً في قول لأبي حامد الغزالي (مشكاة الأنوار) بأن "صدور الأحرار قبور الأسرار".

يقع الكتاب في مقدمة وستة فصول وملحق فيه ابتهالات وذكر بعض أعلام العرفان والمصادر والمراجع وفهرس للآيات القرآنية. من التمهيد إلى الشريعة والطريقة والحقيقة إلى المرآة، إلى أسس التوحيد المعرفية، إلى شروط التوحيد السبعة، إلى الرحمة والرحمانية والمحبة.

فبعد العرض التاريخي لقيام "الدرزية" ووضعها في إطارها الإسلامي العام كفرقة إسلامية تفرعت عن الشيعة الإسماعيلية برعاية من الخليفة الحاكم بأمر الله وهو الخليفة الفاطمي السادس (٤٠٨هـ-١٠١٧م) الذي قامت دولته في الأصل على

العلم الباطن هادفة إلى تأويل كلام الله حسب مقتضى الزمان والوصول بالشريعة إلى الطريقة ثم الوصول بالطريقة إلى الحقيقة علماً وعملاً (ص ١٩). وهذه المعرفة لا تُعطى دفعة واحدة "فلا مؤونة ولا كلفة" في المعرفة إنما المرء يكتسب المعرفة على قدر تهيؤه الفعلي والقلبي والخلقي (ص ٢١).

والقيامة عند فرقة التوحيد خاصةً، هي إكمال الشريعة بالطريقة وإكمال الطريقة بالحقيقة. وقد فرق القرآن بين مرتبة الإسلام التي هي الإقرار ومرتبة الإيمان التي هي التصديق (ص ٢٧) وفي الحديث الشريف أضاف إليها مرتبة الإحسان (ص ٢٩).

في فقرة الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة (ص ٣١)، يشير المؤلف إلى أن المرء لا يصل في نظر أهل التوحيد إلى التوكل على الله والتسليم والرضا بقضائه والتفويض إليه إلا بمحبته سبحانه، فهذه المرتبة العليا وهي الإحسان كما ورد في الحديث الشريف ولسان الوحدانية كما ورد في كلام الإمام علي (كرم الله وجهه) واليقين كما ورد في حديث الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما وإنما هي مرتبة التوحيد الحق "وأول مقام التوحيد قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: أن تعبد الله كأنك تراه" وهذه المرتبة لا يحققها المرء إلا بالمحبة (ص ٣١)، الموحدين لا تصح إلا إذا اقترن علم التوحيد والعمل به بحب الإنسان لله حباً خالياً من كل أنا وصافياً من كل غاية إلا الله (ص ٣٥). من هنا كان التضرع إليه تعالى أي الإخلاص في الدعاء إليه من ضروريات التوحيدفما نفع العلم والعمل والرؤية والوقفة إن لم تكن لله وبالله ومن الله (ص ٣٦) ذلك ما عناه مسلك التوحيد عندما أشار إلى أن النظرة إلى الذات بالإعجاب هي مصدر الثنائية أي الإنحراف عن الله الواحد الأحد وبالتالي مصدر الحياة في الوهم والعدمية والفوضى والتضادّ (ص ٤٠).

ليس الحب في مسلك التوحيد حالة عقلية أو فكرية وحسب، وليس حالة عاطفية أو ذوقية وحسب، وليس حالة روحية أو حسية وحسب، هذه كلها وجوه لحقيقة واحدة هي ذاتك التي هي مظهر من مظاهر الناسوتية. ذلك لأن الذات الإنسانية إنما تتحقق بالله فتصبح مظهراً له تتطهر بحبه (ص ٤٥) ذلك هو سر الحب. أن يحب الواحد الأحد حباً حقاً إلا إذا كان في لطافة تجانس لطافة المحبوب الإلهي (ص ٥٠). هذه النعمة الإلهية كما يعتقد الموحدون ليست فعلاً إلهياً حادثاً في زمن معين وإنما هي شأن إلهي حتمي بحتمية وجوده من هنا عدّ الشيخ الفاضل الوجود الإلهي نعمة (ص ٥٥). ويبقى على المرء تقبل هذه النعمة أو عدم تقبلها (ص ٥٦ - ٧٥).

يسرد المؤلف مقطعاً من فصوص الحكم في تجلي الله الذي هو الوجود كما يتكلم على تجلي الله على مرآة قلوب أولئك المتحققين فيدركون حقيقة الوجود ويتيقنون أن هذا الوجود الذي هو تجلي الله ليس قائماً بذاته بل قائم بالله وفي الله ولله الواحد الأحد (ص ٦٠) فيكون الكون انعكاسه كانعكاس الأصل صورة في المرآة. الخلق بدو الحق (ص ٦١) "الله لطف ذاته فسماها خلقا وكثف ذاته فسماها خلقاً". وتماثل المشاهد مماثلة لا تزيد على ما هو عليه المشاهد من تهيؤ عرفاني وإلا صعق وخرَّ (ص ٧٩). هذه المشاهدة اليقينية التي ينعم بها المحب العارف إنما هي انعكاس للنور الإلهي

كما الصورة داخل المرآة انعكاس لأصلها خارج المرآة (ص ٨١). غير أن الصورة في المرآة ليست إلا تشبيهاً لا ينطبق بكليته على صورة التجلي الشهودي بل يقرّبها إلى الإفهام تقريباً. هذا التسارر بين سر المشاهد وسر الحق هو هذا الانفعال النسبي التائق إلى عرفان العارف الفاني في وعيه لنسبيته والدوران حولها بالواحد الأحد. انه انفعال الكلمة بالمعنى (ص ٨٢) هو تواصل هذا السر الناسوتي والسر اللاهوتي وهما بالحقيقة سر واحد وان بدا اثنين إنما هو وحدة المعنى والكلمة. والناسوتية لغة مشتقة من الناس من جمع الإنسان لا من مفرده والجمع هو "شهود الأغيار بالله" (ص ٨٣) فكلما صفت هذه المرآة من "أناها" زاد المشاهد تهيؤاً وتقبلاً ومعرفةً (ص ٨٤) وإذا بهذا الإنسان الذي استحال حباً يوقن أن مثل التجلي الوجودي هو من الواحد الأحد كمثل الدائرة في نقطة مركزها (ص ٩١) .﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (سورة البقرة،١١٧). فالمحبة في المفهوم التوحيدي إنما هي استشعار بالاتحاد بنقطة البيكار في دورانها العشقي حول النقطة الأساسية... والموحد الحق لا يكره أحداً. حتى الشرير مهما تمادى في الشر وإنما يتبرأ من شره ... وكيف يكرهه ووجوده قضت به الحكمة الإلهية..... (ص ٩٤-٩٥). ولكن وجبت على الموحد المقاومة والمجاهدة فلا يخضع لظلم ولا يرضخ لعدوان ولا يستسلم لشر ذلك حباً للخير وانتصاراً له.

فمعرفة العلة الأولى ومعرفة علل الكائنات هي أمر الله وإرادته وقضاؤه وقوله. ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (سورة يس(آية ٢٦): ٨٢)(ص ١١١).

أما شروط التوحيد السبعة فيذكرها المؤلف وهي: الصدق وحفظ حقوق أخيه الإنسان وهدايته على الخير وإرشاده على العدل وإعانته على قيامه بما هو حق وصلاح ومخاطبته بالتي هي أحسن ولا يصل المرء إلى التوحيد الحق إلا بالتخلي عن عبادة العدم وعن السير على طريق البهتان والظلمة والغيبة عن الوجود الحق فإذا تم له ذلك حقق التبرؤ من الإبليسية التي تعيقه عن التوجه إلى الحق فإذا حقق هذه الخصال دخل حالة من السلام الداخلي فتنقله إلى حالة من الرضى إذ يكون قد أيقن أن الله في وحدانيته هو الخير المحض وأنه حق وخير وجمال فيسلم ذاته إليه إذ يدرك انه في ملكوت الله العال لكل علة الموجود الواحد الأحد الذي لا غير له ولا حد (ص ١٢١-١٢٢).

تلك دعوة المؤلف إلى الموحدين لإدراك كنه معتقدهم "فيستمعون القول فيتبعون أحسنه" فلكل أمة شرعة ومنهاج. وهي دعوة الناس جميعاً كي ينعموا النظر ويروا كيف تتنزل عليهم جواهر العرض من العالم الأسمى فجعلهم الله مساقط الوجود الحق فتشوقوا إلى الكمال وعشقوا جماله وجروا في بحار المشاهدة وقد ملئوا رضى.

ولعلَّ الكتاب يكسب قارئه سدرة العرفان فينتشي بالمعرفة الدينية الحقة فتشرق قلوب العارفين بنور الله. تلك محصلة هذا الكتاب الذي فيه من الجواهر الثمينة والمعرفة العميقة والإضاءة على مسلك حاول الجاهلون تشويه صورته دينياً، كما حاول بعض الطغاة تشويه سيرة أتباعه التاريخية. ولعلنا في هذا المنحى نبارك للمؤلف قدرته على الفهم ورغبته في العطاء حتى لا تبقى المعرفة أسيرة الانعزال بل أن تنتشر في فضاء العالم سراجاً منيراً يهدي المؤمنين إليه فإن خير الزاد التقوى.

سامي مكارم الإنسان
البحث الدؤوب في قلب المعنى*

أ.حسّان زين الدين*

الكنف العائليّ

"كان والدي، الشيخ نسيب مكارم، يحتفل بعيد مولد أخي سعيد وعيد مولدي بدعوته عددا من رجال الدِّين إلى بيتنا لإحياء سهرة ذِكر ومذاكرة، الأمر الذي رسّخ فينا منذ الصغر المعنى بأنَّ مناسبة كهذه، هي مناسبة لتجدِّدَ في النفوس المعنى الإنسانيّ العميق في الأساس، مثلها مثل عيد الأضحى والأعياد الأخرى المباركة التي يرى فيها الصغار مناسبات لارتداء الجديد من الثياب، وهكذا فهمنا أنَّ للأمور الظاهرة معان عميقة لا يدركها المرءُ بسهولة". بهذه الكلمات علّق المرحوم الشيخ الدكتور سامي مكارم على دعوة وجَّهها إليه حبيبٌ من أحبَّائه الشبّان الصغار لحضور عيد مولده، مذكِّراً بما كان عليه أمر بداياته ومستعيداً واحدة من أعزّ ذكريات قلبه المفترشة خبايا دفاتر الطفولة حيث نشأ في حضرة شيخه ووالده الشيخ نسيب خطَّاط الملوك والرؤساء الذائع الصيت؛ ومستذكرا أمامنا، روحيَّة التربية الأسرية التي ترعرع في أحضانها وتشكلتْ معها مداركه الأولى لتصقل شخصيَّته لاحقاً، خلال سنوات اليفاع، على يد أحد الشيوخ الذي عهد إليه الشيخ نسيب تعليم ولديه أصول التدبّر وفق كتاب الله وكيفية تفهّمه واستشفاف لطائفه.

* نُشرت في مجلة الضحى الصادرة عن المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدرو، عدد ٧ ــ ٢٠١٣.
*كاتب وباحث.

كانت والدتُه وسيلة سليمان فرج من بلدة عبيه من النّساء المؤمنات المتَّصلات بلطائف الذِّكر، وكانت على درجةٍ من الثقافة إذ حصلت في عشرينيّات القرن الماضي على شهادةٍ علميَّة، وكانت من هواة إنجاز أعمال فنِّيَّة تشكيليَّة في التَّطريز، وهي تركت أثرًا بارزًا في الطِّفل سامي المولود عام ١٩٣١؛ فكان من مكوِّنات شخصيَّته أثر حنان الأمّ وميولها الراقية من جهة، وحضور الأب بعقله وفؤاده وتهيُّبه الجمال في فنه وسلكه الروحي الهادف إلى تعبُد الحق من جهة أخرى.

إذًا، كانت والدته باباً من الرَّحمة كما أحسَّ بها الطفل سامي، وكانت سبيل التأديب والتقويم لطفليه كما أرادها الشيخ نسيب. هذا نزرٌ يسير مما ذكره أمامنا الفقيد غير مرة، وكان قد ضمَّنهُ كتاب سيرة حياته الذي انتهى من تدوينه قبل أشهر من وفاته، وسوف يُنشر لاحقا بإذنه تعالى. كان د. سامي يذكرُ والديه كثيرًا، وكان ممَّا يقوله في هذا الصَّدد: عرف والدي كيف يربينا بالكلمة الطيبة والمرافقة، وكيف يقيم القصاص بالتلويح بـ "قشة المكنسة"، وكيف يشذّب شخصيتي بمساعدتي على بناء الموقف ودفعي إلى التفاعل مع ما أتعرض له ويعترض دربي عوضًا من الانفعال، وعرف كيف يوازن بين الأبوَّة وبين الصداقة والأخوَّة لي ولأخي سعيد، إلَّا في الحالات التي تخرج عن الحدّ، كتلك التي "تشاجرنا فيها سعيد وأنا، ووصل شجارُنا إلى مسامع أبي، فأقبل علينا وقال بحدَّة: "اثنان مش مناح بيختلفوا، وإذا واحد من الاثنين مش منيح بيختلفوا، وإذا الاثنين من أهل الخير ما بيختلفوا"، فانصعنا إلى صوت الحق في كلامه، وانتهى ما كان بيننا من شجار".

دراستُه

تلقَّى الفتى دراسته في الليسيه الفرنسية في بيروت، ثمَّ في الكلِّيَّة اللبنانيَّة في سوق الغرب، وتنامت شهرةُ والده الذي كان قد بدأ حياته نجاراً، وسرعان ما اكتشف ما حباهُ اللهُ له من موهبةٍ في تدبيج الخطّ العربيّ، فراح يخدمها بما يرضي المولى عزَّ وجلّ، وأحسن في ذلك إحساناً بلغت معه شهرته الأقطار والجهات. وبقي إلى أن توفَّاهُ الله مطلع السبعينيات خادماً أمينا لتلك الموهبة، معترفا بالافتقار إلى الله حيالها وحيال ما ترتب له عليها من منجزات غير مسبوقة في الخط العربي جعلته متربعاً على عرش فنه. لكنَّه واظب على النَّظر إلى نفسه بعين التقصير من حيث عدم بلوغه كمال فنِّه. وقال يوما لولده رحمة الله عليهما: لقد منّ عليَّ المولى بعظيم فضله وكرمه، وباتت أعمالي تنافس أعمالي، لكنَّني لستُ براضٍ عنها كلّ الرِّضى. أعنى بذلك أنّ الفنَّ كما العِلم هو ارتقاء بعد ارتقاء. ولا شك في أنّ فقيدنا تأثَّر بشخص والده وشخصيته اللامعة والجامعة للتفوق والتقوى في آن، وبحكمته القادرة على ضبط طغيان الأنا بالإنكباب على معرفة الله والشكر لنعمه، وبالتبرؤ من عين الشهرة بالتفاني في خدمة الجمال.

بعد حصول الشاب سامي على شهادة البكالوريا، التحق بالجامعة الأميركية في بيروت ليحصل على إجازة في الأدب العربي والفلسفة عام ١٩٥٤، وعلى الماجيستر في الآداب عام ١٩٥٧. ترافق ذلك مع استمرار التنشئة الدينيَّة في رعاية والده وشيخه، وبين أصدقاء الوالد من الإخوان الأفاضل، وتعرّفه على شيوخ البلدان والشخصيات السياسية الدرزية والوطنية. ومن الطبيعيّ أن يتقاطع هذا كلّه مع احتكاكه

بالأنتليجانسيا اللبنانيَّة عمومًا، والدرزية خصوصًا، منها في الحياة الجامعية والصالونات الثقافية، وإطلاعه على ما راكمته من نتاج أدبي وفكري، وما تخلَّل ذلك النتاج من اجتهادات بعض الدّروز خارج السياق المألوف لأدبيات التَّوحيد خلال النصف الأول من القرن الفائت وبعده، أي في مرحلةٍ سبقت انتظام المؤسّسات المذهبيَّة، لا سيّما منها مشيخة العقل في سياق تنظيميّ عام. هذا الأمر، حفّز الشاب سامي مكارم آنذاك، على التفكير في اكتساب تخصُّص متعمِّق في شؤون الحضارة الإسلاميَّة. ونقل إلى والده رغبته في الانتقال إلى الخارج للاستزادة من العلوم في هذا الحقل. فما كان من الشيخ نسيب إلا أن قال لولده، إنَّ العلمَ من لدُن الله تعالى، والتعلُّم واحدة من نعمه. فإذا مَنَّ اللهُ عليك بالعِلم، فاستخدِمه لغاية وجهه الكريم، وليكن الخيرُ زادَك والحقُّ مطلبَك. وقال له أحدُ أصدقاء والده من الموحِّدين الشيوخ: إذا كانت نيَّتك من التعلُّم خدمة أمَّتك وخدمة الحق، فأنا أدعو الله لك بالتوفيق، وإذا كانت غايتك استخدام عِلمك في غير ذلك فإني لا أدعو لك بالتَّوفيق.

الدِّراسات العُليا في الولايات المتَّحدة

أمضى سامي مكارم سنوات التَّخصُّص في جامعة ميشيغن آن أربر في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة دون أن تبرحَ قلبه وفكره تلك الوصيَّتان اللتَّان مثّلتا له، إلى جانب ما اكتنزه من معارف روحيَّة، الحافز الأهمّ للإنكباب على ماهيَّات العلوم، وأمَّهات الفلسفات والأفكار الدينيَّة، وعلى التعمق في الأصول الإسلامية وتفرُّعاتها من مذاهب وفِرَق. وتوسَّعت مداركُه أيّ توسّع. ودرس على مفكِّرين عالميين كبار. وكان أن زار لبنان في تلك الفترة غير مرَّة، فألقى محاضرته الأولى

بدعوةٍ من رابطة العمل الاجتماعي في بيروت عام ١٩٥٩. وهو الذي كان من مؤسّسيها بحضور أركان من الطائفة روحيّين وزمنيّين، بينهم سماحة شيخ العقل محمَّد أبو شقرا، والزَّعيم المفكِّر كمال جنبلاط، والمربّي شكيب النكدي. وعبَّرت تلك المحاضرة عن المسار العام لحراكه الفكريّ والمعرفيّ الذي انتهجه لاحقًا عاملًا على تحقيقه خلال العقود اللاحقة. وكان كما ذكرنا، قد بذل جهوده لنيل الدكتوراه في الفلسفة والعلوم الإسلاميَّة، محدِّدًا الفرَق الباطنية موضوعا لأطروحته التي أنجزها في العام ١٩٦٣. وفي الوقت نفسه كان قد باشر تدريس اللغة العربية في الجامعة التي درس فيها قبل أن يعود إلى لبنان ليبدأ مسيرةً استغرقت نحو نصف قرن من الزَّمان، مجاهدًا ومحاولا المواءمة والتوفيق والتوحيد بين نظرتين: نظرتنا إلى ذواتنا وإلى أمَّتنا بأعيننا نحن، ونظرة الآخرين إلينا وإلى أمَّتنا عبر رؤية الآخَر في العالم الواسع لنا. واستمرَّ عاملاً في سبيل تصحيح الخلل الذي يشوب العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب، وهو الخلل الَّذي يشوِّه الصُّورة السَّمحاء للإسلام الحق، ودوره الريادي في مسارنا الحضاري.

العودة إلى لبنان

عاد إلى لبنان عام ١٩٦٣ ليدرّس الفكر الإسلامي في الجامعة اللبنانية، ثمَّ جرى تعيينه في العام ١٩٦٤ أستاذا مساعدا في الأدب العربي والفكر الإسلامي في الجامعة الأميركية في بيروت، وترفّع لاحقاً ليصبح أستاذاً أصيلاً. وسرعان ما اندمج في الحياة الفكرية والأدبية مجَنِداً مخزونه المعرفي وبراعة قلمه وموضوعية نقده وأكاديمية أسلوبه وحداثة لغته في خدمة قضيته الأساس وهي المعرفة المتعمِّقة خاصَّةً في التوحيد، هذا الحقل القائم في جوهره على الثوابت، الحقل الشاق والشيِّق في آن معاً كما وصفه

ذات مرّة. ولم تمض سنتان على عودته إلى لبنان إلا وعهدت المرجعيَّات الروحية والسياسية في طائفة الموحدين الدروز إليه مسؤولية توضيح الالتباسات المترتّبة عن الأزمة الناشبة من جرَّاء صدور كتاب "مذهب الدروز والتوحيد" لعبد الله نحار الَّذي أثار جدلا حول دقَّة المسائل المطروحة ومنهجيَّة تناولها. ووُفِّقَ الدكتور سامي مكارم، من خلال لغته الحازمة ومنطقه المحبوك وتبيانه للحقائق والقرائن الوافية والمبيّنة إسلامية المذهب، في وضع نقاط الحقيقة التي يمكن أن تعالج المسألة بكلِّيتها، وليس اجتزاءً مشوِّهًا لأساس الموضوع، وصدرت تلك التّوضيحات العِلميَّة في كتاب "أضواء على مسلك التوحيد" الَّذي كتب له المفكِّر كمال جنبلاط مقدّمةً بالغة الأهمِّيّة، فأعطى بُعدًا فكريًّا آخر موازٍ للبُعد المعرفيّ الروحانيّ الذي عبّر من خلاله د مكارم عن النظرة التوحيدية للمسائل التي طرحها النجّار، وعالج أيضاً جوانب أخرى مكمّلة.

آفاق همَّته ونشاطاته

تعزَّزت علاقتُه بأركان الطائفة الرّوحيِّين بعفوية خالصة، وتنامت مع الثِّقاة والعلماء وتكاملت، في الوقت الذي اتَّسعت فيه آفاقه مع ما ترتَّب عليه تباعاً من مسؤوليات، سواء في حقل التعليم حيث شغل رئاسة دائرة الأدب العربي ولغات الشرق الأدنى في الجامعة الأميركية مرَّتين، كما كان أستاذاً غير متفرغ في برنامج الدّراسات العليا في الجامعة اللبنانية. وعُيِّنَ لاحقاً مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في الجامعة الأميركية في بيروت؛ أو في اشتغاله في الفكر والثّقافة التوحيديَّة بحثاً وتأليفاً، وفي مسلك التوحيد بشكل ميداني إرشاداً وتوجيهاً، وبينه وبين خالقه عملاً وتحقيقاً؛ أو من حيث مواهبه التي تفتَّقت تباعاً في الشعر والفنِّ والأدب والأبحاث

اللغوية وظهرتْ في أعمال قام بنشرها بدايةً في الصُّحف والمجلَّات والدَّوريات الأدبيَّة والعلميَّة، وأصدرها خلال العقود اللاحقة في كتب ومؤلَّفات جعلت منه مرجعيَّة أكاديميَّة في الإسلاميات والتصوُّف والفِرَق الباطنيّة واللغة العربيّة والأدب؛ فأمسى "حركة تنوير" في حدّ ذاته، اشتملت على مدى عشرات السنين صنوف الأدب العرفانيّ، والشّعر، والنثر الشعريّ، وآداب الرجال، وفنّ تشكيل الحرف، والتَّأريخ، والقصَّة، والفلسفة، وأدب السّيرة، إلى جانب لعبه دور فاعل في مواكبة مسيرة "مؤسَّسة العرفان التوحيدية" منذ تأسيسها في السبعينيات من القرن العشرين، ودوره المركزي عند تأسيس "المجلس الدرزي للبحوث والإنماء" في الثمانينيات، وريادته أعمال البحث فيه، ومشاركته ككبير الباحثين في مؤسسة "التراث الدرزي" منذ تأسيسها عام ١٩٩٩، بالإضافة إلى كونه عضوًا مؤسِّسًا في جمعيّات فكريّة وأدبيّة وإنسانيّة عدّة في لبنان والعالم الإسلامي، وراع لجمعيّات أهليّة وخيريّة، ومشارك في عشرات المؤتمرات ومئات الندوات والمحاضرات. كما أقيمت للوحاته التشكيليَّة الحروفيَّة عشرات المعارض في لبنان والخارج، وتميّز خطُّه الفنيّ بمساحات من اللون والحركة أخرجت هذا الفن من قيد الكلاسيكيّة، وأسهمت في إثرائه بقواعد الجمال، ما جعله خطّا مبتكراً في مجال هذا الفنّ له طابعه المكارميّ الخاصّ.

إرثهُ الحَيّ

فهمَ سامي مكارم الحرية على أنَّها العبودية للحق بكمالها وإتّباع إرادة الله وأمره بالكليَّة، فكان حرّاً بمقدار استطاعته، وكان داعيةً لحرّيَّةٍ معتمِدةٍ على التَّوحيد ومنبثقة منه، والحرّيَّة كما يقول هي المسؤوليَّة بكمالِها. وجسَّد بنفسه أنموذجاً في تحمُّل جسام

المسؤوليات مع من حوله وفي ما حوله، وفي حرصه على أرث الأسلاف الأعراف والمحافظة عليه باعتباره إرثًا لا يورَّث توريثاً، ولا يُنقل نقلاً، وإنَّما يُعاش بالتَّفاعل، ويحياهُ المرءُ بالمؤالفة بين صدرٍ حرٍّ وبين صدر حرّ آخَر. فحاول صياغة هذا الإرث بلغةٍ معاصرة وأمانةٍ عالية ودقَّة متناهية وفق المستطاع، ليتركه ذخيرةً حيَّة فينا ويرحل عن ٨٢ عاماً.

وخلّفَ د. مكارم في الوقت عينه نتاجًا فكريًّا وفنيّا كبيرًا، وتاريخًا أكاديميًّا في الجامعة الأميركية في بيروت التي شهدت دأبه على عمله الفكريّ حتَّى الرَّمق الأخير، وسجِلًّا حافلًا في تجواله على المغتربات الدّرزيَّة كافّة لنشر كلمة التوحيد والدِّفاع عن مفاهيمها الصَّحيحة. كما أثرى المكتبة العربيَّة والإسلاميَّة بنحو ثلاثين كتاب تنوَّعت مواضيعُها وفق ما سبق ذكره، وبقي بعضها مخطوطا أو في طوْر الطباعة.

المؤلّفات

كَتَبَ في الفكر الدينيّ والعرفان وأدب السيرة والنثر الشعريّ، وأكثرها شهرة في البداية كتاب "أضواء على مسلك التوحيد" في الستينيات، وThe Doctrine of the Ismailis،وThe Druze Faith في السبعينيّات، وكان له إسهامات مهمة مختلفة بتكليف من مشيخة العقل صاحب السّماحة المرحوم الشيخ محمد أبو شقرا، وشارك صديق عقله وقلبه الراحل الدكتور عباس

أبو صالح في تأليف كتاب "تاريخ الموحِّدين الدّروز في المشرق العربي" الصادر عن المجلس الدّرزي للبحوث والإنماء في وقت عصيب من تاريخنا تعرَّضَ فيه الدّروزُ الموحِّدين لهجمةٍ شرسةٍ شكَّلت خطرًا على وجودِهم وصورة هويَّتهم الإسلامية، فكانوا فيها عرضة لسهام الفتنة والتشكيك خلال حرب الجبل في الثمانينيات.

كما تناول د. مكارم في أحد كتبه شخصيَّة المتصوِّف الكبير الحلاج، وبيّن في "الدراسة التوحيديَّة" التي تضمَّنها الكتاب ملامح وسِمات "حلَّاجيَّة" لم يسبق لباحث أن أظهرها من قبل. وأنجز بحثًا روحيّا لطيفًا تناول فيه سيرة حياة المرحوم الشَّيخ التَّقيّ المتشوِّق علي فارس من فلسطين، فتعمّق في سبر أغوار تجربته التوحيديَّة، ودقائق مسلكه الدّينيّ. وتناول والده الشيخ نسيب مكارم في كتاب أيضا، جامعًا آثاره الفنيّة وخفايا سيرته. وكَتَبَ عن أكثر المتصوِّفات في الإسلام رِفعةً بعد أن جمعَ تراثهنّ في كتاب "عاشقات الله". وأبحر في خفايا تجربته الخاصّة، ومعارجها الروحيَّة عبر نصِّه الوجداني "مرآة على جبل قاف" الذي اعتبره بعض النقَّاد أثراً عرفانيًّا في أدب السِّيرة الروحانيَّة قلَّ نظيرهُ في أدبيَّات العصر. وحاول مطلع الألفية الجديدة أن يصوّب حركة التأريخ من خلال وضعه لكتاب «لبنان في عهد الأمراء التنوخيين" (راجع في هذا الملفّ مقالة خاصَّة عنه) الذي تمكّن فيه من تبيان حقيقة أنَّ أمراء الغرب وبيروت التنوخيِّين هم المؤسِّسون الأوائل للكيان اللبناني قبل الأسرة المعنيَّة.

كما تناول د. مكارم بمنهجيَّة مدقِّقة مفهوم "التقيَّة في الإسلام"، فكتب بحثا مسهبًا نشرته "مؤسَّسة التراث الدّرزي" عام ٢٠٠٥، أكَّد فيه ثبوت استخدام التقيَّة من قِبل الفِرق الإسلامية المختلفة خلافاً للاعتقاد السائد أنَّها مختصَّة بالفِرَق الباطنيَّة دون سواها. وكان له تراجم عدَّة عملًا وتحقيقًا. وفي السَّنوات الأخيرة من حياته ازداد ميلًا إلى الغوص المعمَّق في الذائقة العرفانيَّة فكتب "العرفان في مسلك التوحيد"، مبيِّنًا البنية العرفانيَّة الإسلاميَّة لعقيدة التَّوحيد. وترك عشرات القصائد والنثريَّات الموزعَّة في متون "قصائد حبّ على شاطىء مرآة"، و"ضوء في مدينة الضباب"، وكتب أُخرى تمَّ نشرها، وأُخرى غيرها هي قيد النشر الآن، بينها كتابا شعر هما: "نون والقلم" و"زهرة الليلك". وقبل أشهر قليلة من رحيله، أنهى نصًّا تضمَّن ما أمكن من سِيرة حياته، وبعض أعمال لم تمهله الأيَّام وقتًا لإنجازها.

حراك حضاريّ

كان سامي مكارم "حِراكاً حضارياً" في بيئة "مطمئنَّة" لم تألف هذه الوتيرة المتصاعدة من مثل هذا الحِراك في بابه. ولا نُغالي إذا قلنا إنَّ عمقَ الأثر الإنسانيّ الَّذي ولَّده لم يُكتشف بعد بكليَّته حقّ الاكتشاف. فهو كان "أصيلا" في تمسُّكه بثوابت التّوحيد المعرفيَّة، ومتشدِّدًا بوجوب التَّعبير عنها عرفانًا في التجربة الذاتيَّة والجماعيَّة. ومؤمنًا بأنَّ المعارفَ والعلوم جميعَها سائرة إلى بلوغ غايتها في الوحدة بالعِلم الحقيقي. وكان إلى ذلك صاحبَ نظرةٍ تجديديَّة في الأدب العرفانيّ، والشِّعر

المنثور، وفي الحروفيَّة التشكيليَّة، جاعلاً للجمال غايةً متحرِّرة من قيد الحرف واللون والقالب. كما جاهد هو بنفسه أن تكون عليه "هويَّته" من النَّفاذ إلى الأفق الفسيح، حيث استمرَّ من خلال تعدُّد مواهبه، وتنوُّع اهتماماته، توَّاقاً إلى بلوغ إنسانيَّته كمالها الأنسيّ في هذه الوحدة الكونيَّة. لذا تراه اعتبر "الأنا" مصدر كلّ سُوء وتفرقة، وعدّها "سلاح الدمار الشامل"، ومسؤولة عن كلِّ تضارُب في هذا الكون، بدءًا من نزاع الخير والشَّرِّ في النَّفس، وصولاً إلى صراع الأضداد في عالم المعنى. واستمرّ يحذِّر من سطوة الأنا على الأفراد والجماعات والأنظمة والمجتمعات.

إنَّ الحياةَ المكافِحةَ في المعرفةِ التي عاشها د. سامي مكارم هي تجربة فريدة فوَّتها الكثيرون من الباحثين عن كيفيَّات الالتزام بالأدب الروحيّ في الحياة المعاصرة، والإرادة والمشيئة لله عز وجل في كلِّ حال. لكنَّ الغايةَ الَّتي جاهد في سبيل نقلها إلى الأجيال اللاحقة ترسَّخت في مضامين الإرث الَّذي خلَّفه من حيث هو إرثٌ متأصِّلُ في الجذور. ونحن بدورنا علينا خدمة هذا الإرث لكي نُحسنَ الانتفاع به واستخدامهفي مواصلة خدمة غايات التربية التّوحيديَّة الراقية، وهو أمسى "حالة معرفيَّة متعدِّدة الأبعاد"، ولَّدتْ حالة الوعي، واستقرَّت "هنا" في صميم الذاكرة الجماعيَّة للموحِّدين أينما وُجدوا، وفي قلوب عارفيه ومحبِّيه في مختلف الأقطار والأرجاء إلى أيِّ طائفة أو دين أو فكر انتموا.

كان سامي مكارم داعية "الانخراط في الواقع"، وهو ترك فيه "بصمته الإنسانيَّة حتى لحظات حياته الأخيرة. فهو انتهج التَّوحيد منهجَ حياة معاصرة في التفكُّر والمحبَّة، وفي القول والفعل، وفي الذِّكر والمذاكرة، وفي البحث والاستشعار، وفي

الإلقاء والسَّماع، وفي التدريس والتأريخ، وفي الفنِّ وتذوُّق الجمال، وفي الشَّغف بالتُّراث وشوقًا إلى التّجدّد، وفي النّظرة المسؤولة إلى الذّات ونظرة الشّفيق الرفيق إلى الآخر، وفي احترافه "النّقد الناعم"، والتأديب بـ "قشّة المكنسة"، وفي عدم سكوته عن الظُّلم ومعونته للظالم حتى يعود عن ظلمه، وفي نبذ الخلاف واحترام الاختلاف، وفي انجباله بالصَّبر وحرصه على وحدة الكلمة، وفي براعته في فنّ التَّواصُل، ومراعاته خصوصيَّات الوعي عند كلّ الناس، وفي التَّعامل معهم بالتي هي أحسن من موجبات حاضرهم وممّا يفقهون، وفيتقديسه لأصول "العِلم" وأصحابه العِظام آباء المعرفة، وفي النَّهل من أوتاد الأرض الشيوخ الثّقات، وفي تفانيه في خدمة كلّ ما حوله وكل من حوله. وفي الخلاصة: حاول سامي مكارم اكتشاف حقائق الأشياء بحقائقها ذاتها، فكان من الأوائل في حقله في وقتنا هذا، كما لكلِّ زمن أوائل.

تعليم أجيال

أجيال تعاقبت على "مائدة" سامي مكارم ونهلت من معين التوحيد على يديه لا سيّما خلال السنوات العشرين الأخيرة في النّدوات والمحاضرات وحلقات المذاكرة والجلسات التي لم تُحرَم منها منطقة في لبنان. كذلك شملت الدول العربية والمغتربات الدرزية في الأميركيّتين واستراليا وأوروبا وإفريقيا. وتحلَّقت تباعاً حوله كوكبةٌ منالشَّباب تتلمذت عليه وتنادوا فيما بينهم بـ "المجموعة". وكان يردّد أمامهم مُنبِّهاً قبل سنوات: "لستُ قبطان الطائرة، لكنَّني واحدٌ من المسافرين". حضر إلى منزله ذات صيف قبل ستّ سنوات شاب يدعى دانيال آتياً من الأرجنتين برفقة ولديه اليافعين،

وقال: هاجر والد جدي إلى الأرجنتين ووُلِدَ جدي ووالدي ووُلِدتُ أنا هناك، وهذه رحلتي الأولى أحقِّق فيها حلم حياتي في التعرُّف على جذوري في لبنان، لكنك يا د سامي كنت معلّمي وشيخي خلال ثلاثة عشر سنة، مذ قرأت أحد كتبك تعرَّفت عليك، وكنت أقيم المحاورات معك، أسألك وأنت تجيب من صفحات الكتاب... وعاد دانيال "عن" غربتهِ مُفعما بالأنس، مكتنزا للحقائق خلال أسابيع قضاها في رحاب الوطن وأهل المعتقد. فكم من "دانيال" عاش غربته في الوطن وكان لسامي مكارم يدًا في انتشاله إلى حقيقة هويَّته في النور؟

ومع ذلك، فلا يمكننا إغفال حقيقة أن الراحل، الذي كان سبّاقًا بين بني عصره، ومتَّبعاً أصالة الإحسان وروحيَّته، كان عاملا فاعلاً على نهضة مرتجاة تمنّاها لأمَّته، وهو ما لم يحدث بالكلّية خلال سنيَّ حياته ال٨٢. لكن غيابه وواقع الحال يحمِّل جميعنا المسؤولية في أخذ المبادرة، وتسليمها إلى الأجيال اللاحقة كما نهج الأسلاف الأعراف على ذلك وتَهَجَ سامي مكارم نهجهم، حيث تجاوزوا بقاماتهم المعرفية حواجز وصعابا كثيرة على مر السنين. وأملنا يقينيّ في البيئة التوحيدية التي تفاعل فيها الراحل خادماً أميناً للحقيقة ومناضلاً من أجلها ومن أجل مستقبل أبنائها، البيئة التي تكتنز أصالةً معرفيةً، حضارية في العمق، أن تستمرَّ بيئة راعية وحاضنة لحركة الوعي التي عمل الراحل على توليدها في عقول وقلوب"الناس"، ومن بينهم أولئك الذين تتلمذوا عليه إخوانه الشَّاهدين على البركات التي حاز عليها من الأعيان الثقات الكبار، وكيف كانوا يشدُّون أزره، وشهدوا على الإجلال والإكبار والتفاني الذي أبداه الفقيدُ لأولئك الشيوخ الأطهار

المنسجمين مع ذواتهم في الزهد والنقاء والورع والتقى خلال عقود، ونهلوا (التلاميذ) مع شيخهم من عقول وقلوب أولئك الكبار "عيون العرفان"، المكتنزين لوعي عظيم تلحّفوا به، ولا يُصرف في معظمه بغير الابتهال ومناجاة الحق تعالى، في طلب نعمةٍ ربَّانيَّة آتية بالربيع الحقيقي إلى الكون وإليهم. ويذكرُ "الشّباب" مقولة الكتاب، وما كان يردِّده شيخُهم إنَّ ربيع العدالة والحقّ والخير آت، وآمنوا بما آمن به وأمَّنَهُمْ عليه من أن الحساسين يمكنها أن تصنع ربيعها إذا ما حافظت على وحدة الكلمة، وإذا ما نجح "الشباب" في صيانة حلمهم الذي صاغه معهم شيخهم؛ وذلك يكون بتناغم معشرهم وبصونه من نظرة الفرق ومن الأهواء، وبالاستمرار في اعتبار الحق غاية قصدهم .

عاشق الكلمة

بذل د. مكارم بذل عمره كلّه في ما يحبّ، وساعات قليلة من النوم كانت تكفيه. هاتفتُ منزله يوماً في التاسعة إلا خمس دقائق صباحاً لألفت انتباهه إلى صدور مقال افتتاحي في جريدة النهار كان قد تناول فيه كاتبُه كتابَ "العرفان فيمسلك التَّوحيد"، أجابت زوجته السيدة ليلى على الهاتف، فنقلتُ لها غايتي من المكالمة وانتظرت أن أسمعصوته وأسلّم عليه، كما جرت العادة، لكنَّها اعتذرت منّي قائلة: "سامي من شوي نام...بس يوعى بقلو يحكيك"! كان لم ينم طوال الليل،وسهر الفجر لكون الكتاب أنيسه، فكم أنِس بمن عشقوا الكتاب وعاشوا الحكمة عيشا بالكلّية لا بالتكلُّف؟

هو نديم الكلمة والقلم، وقرين الباحث والقارىء والشّاعر والمؤلّف. وهو من ناغمَ الحروف تغزّلا قبل أن تنداح مرفرفة على لون المئات من لوحاته، وفيها صبْو لفرح عينيه ولتغريدة قلبه، كما صبْو كلّ من عرفه في كل مرّة يغادر فيها محضره. "الفَرِحُ" على الدوام، وفرحُه الداخليّ ينصبُّ فيك انصبابا مُطهّرا إيَّاك من "حطام" دنياك، ويرتقي بك إلى حيثُ شفاف الإنسانية النبيلة المخبوءة فيك. كان "مدرسةً ومنهجاً ولغة ومعلّمًا" في مخاطبة الناس بالتي هي أحسن، أحسَنَ فيهم وأحسَنَ إليهم، وكان يوحي لكلِّ من التقاه يوماً من عارفيه ومن أجيالٍ تعاقبت وكان مواكبا لوعيها أفرادا وجماعات، أن المعرفة كامنة في النَّفس، وما عليك إلَّا اكتشافها فيك، داعيا إياك إلى أمر واحد: "كن إنساناً". منّا من آخاهُ على درب الحقيقة، ومنّا من تتلمذ عليه، ومنّا من واكبه، ومنّا من عاصَرَهُ، ومنّا من صادقه، ومنّا من غادره قافلاً إلى حيثُ كان، ومنَّا من غادره إلى مكان أكثر أمناً. وهو كان الأخ الناصح، والأب الشفيق، والمربي الرفيق، والمعلِّم "السقراطي السِّمات" لنا جميعاً، والمفيد المستفيد، والباحث دائما عن كلِّ ما هو حق وخير وجميل فيه وفينا وفي هذا الوجود الأنيق.

تعامل مع الطفل ببراءته، ومع الزعامة من هيبتها، ومع الكريم بكرمه، ومع الفقير بمشاركته، ومع المرأة من أنوثتها، ومع الجاهل من حدِّ وعيه، ومع المتفكّر من مضامين أفكاره، ومع الشَّاعر من أخيلتِه الشِّعرية، ومع المتواضع بالتذلُّل إليه. وخاطب كلّ ذي شأن من شأنه، إلَّا صاحب "الأنا" كان يدعوه بوسائل غير مباشرة وبأمثلة مختلفة إلى التبصُّر في حاله، ويتمنَّى عليه أن يستقيل من هوى نفسه ليرتبط بالسَّعادة مغتبطا، وما السَّعادة غير عظمة التوحيد، "كفّ عن النظر بعين العظمة، تصل إلى مقام العظمة" كما ذكر في أحد كتبهِ.

المعراج الأخير

ظلّ يحذِّر من الأنا، واستمرّ يحذّر منها إلى آخر يوم قبل توعُّكه، حيث كانت جلسة الوداع في أوَّل أيَّام عيد الفطر المبارك الواقع فيه ١٩ آب ٢٠١٢، مع أطفال وشبّان وشابات، بلغ الصغير بينهم سنّ الحادية عشرة، يومها قال لهم: أنتم أمل هذه الأمَّة ومحور التفاعل فيها. أنتم على تماسّ مباشر مع أبناء جيلكم. إذا ما وضعتم انتباهكم على الحقيقة لا على الشخص أو الأشخاص تنجحون. فالطبيعة يحكمها النّظام المتوازن وهي لا تقبل الفراغ، والفراغ هو فوضى التوازن. ضعوا النظام نصب أعينكم، واعلموا أنَّه من خلال الأنس بهذا النظام وحبّه يتطهَّر الإنسانُ من أناه... ". وعندما استأذن بعض الشبّان للمغادرة قال: " لوين، بعد بكّير!" وأضاف: تكادُ عيني تدمع عند رؤيتكم... لكنَّني الآن بتّ مطمئناً أنَّ المستقبل واعد إنشاالله". لم نأخذ كلامه على محمل "الغياب"، لكنَّه أودع أمانته في أولئك الحاضرين، وكان عددُهم سبعة وأربعين.

أحبَّ د. مكارم قصَّة الطّيور كما سردها فريد الدِّين العطّار في "منطق الطَّير"، وأيّ فرح كان يغمره لدى ذكرهم على مسامعنا. وفي ذلك النَّص، الذي مثل ترنيمة روحيَّة لرحلةٍ نورانيَّة، ينزع الهدهد الرّيش عن أجنحة الطيور الثلاثين في رحلتها إلى الملك السيمرغي، فكان قدرُه، خلال ثلاثين ساعة أخيرة في حياته، قضاها في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، أن أُصيب بمثل نزع الرِّيش عن جناحيه قبل أن يلج فقيدنا وحبيبنا وشيخنا سامي مكارم المعراج الخير في رحلته.

سألناه في ساعاته الأخيرة: ماذا قال الحلاج حين قُطِّعت أوصالُه؟ فلم يُجِب، من فائق أدبه وحسن تواضعه. حينذاك، قلنا له: "حَسبُ الواجد... " تابع عندها قائلاً: "... إفراد الواحد له". لم يرَ إلى نفسه أنَّه "واجد"، أي أنَّه صاحب وجدٍ يؤهّله إفراد الحق له، وكان في ذلك سائرًا على خطى الشيوخ الأعراف، وأحد كبارهم الشيخ الفاضل محمد أبي هلال رضي الله عنه الذي استمر معترفاً بعجزه وافتقاره للتوبة حتَّى الرَّمَق الأخير.

استمرَّ جسد سامي مكارم مَطرحًا لاختبار الألم وما كان يتلفَّظ بغير: "الحمد لله على كل شيء"، إلى أن بلغ التطهُّر بـ "الحبّ" تمامه في كينونته، فأمسى دمه نقياً من كل ماء شركيّ، وقلبه بريئا من سلطان إبليس، عندها هبط ضغط القلب ليستقر على "واحد"، ونبض الجسد توقَّف عند "واحد"، وتمتمات الفؤاد سكنت في "واحد". ولما لم يكن في الدار غير الواحد، راحا جناحا العجز والعشق يطيران بالقلب، من على شجرة الجمّيز، بغير ريش، يحلّقان خلف هدهد الزمان المبحر بلا كلل نحو هذا الحبيب السيمرغي، الذي قال فيه فقيدنا، فقيد الأنس في كتابه "مرآة على جبل قاف": "لكأنَّ طائر السيمرغ، إذ يبدو للطير... وقد بسط جناحيه، وحملني، وطار بي، وغيَّبني في ملكوته، لقد صيَّرني منه وما صيّرني، وصلني به وما وصلني، فصلني عنه وما فصلني... غير أنّه ما إن حلّق بي حتى حطّ بي من جديد. ما أوجدني إلا لأعود إليه. وما كوّنني إلا لأكون في كونه شاهداً لوجوده، ذاكرا لآلائه." وتابع شعراً:

"واليوم عُدتُ إلى ما كنت أحذره، ذكرى من الطيب في حِقّ من الطّين!"
استمر هذا الحبيب شاغل شغل سامي مكارم منذ اليفاع، وتدرَّج في اقتفاء أثره تماشيًا مع اختمار تجربته الرّوحيَّة، إذ يقول في الكتاب عينه:

"حيث ذاتي تعتلي شيئاً فشيّا
جبل "القاف" السَّحيق،
فأرى ذاك المحيّا،
حيث "سيمرغ" الهوى
يتبدَّى لي مرآة
أرى فيها العوالم:
كلّ ما في الكون من ماضٍ ومن آنٍ وقادم "
(مرآة على جبل قاف . ص٧٩).

وفي خلال الشهر الأخير من حياته، صرف اهتمامه بالكلّيّة في البحث عن خفايا جبل "القاف"، وعن ملاحقة أخبار ذاك الأعجمي الذي وطىء القاهرة يوماً وبدّل طعم ماء النيل. سقط جواد سامي مكارم... نعم.

وكم نفتقد "اعتزالنا" حضوره بيننا، وهو من كان لنا "أحلى هدايا العمر"، وإن عَمِلنا على معالجة مصاب انتقاله بالرِّضى، فنحن على يقين أنَّ فارس الحقيقة

سوف يتابع مسار خروجنا إلى النور.

لقد توفّى المولى د. مكارم برحمته حيّا، وهو الذي كان "برحمانيته أوجدني في حدّ الإنسانية. ومن خلَل هذه الإنسانية قدّرني على الارتقاء من مقام إلى مقام، وعلىالمسافرة في درجات تعاليم هذا الحدّ الأعلى العاقل للإنسانية الذي به أستطيع أن أتبيَّن ما تهيأ لناسوتيَّتي أن تتبيّنه من الألوهة (مرآة على جبل قاف . ص١٤١)"

لقد توفّاك المولى برحمته وكنت حياً...و بقينا نحن (أو كاتب هذه السطور على الأقل) في الغمض مثلنا مثل جنين في الرحم يتلهف إلى لحظة "طلق". مثلنا مثل نور اكتنزهُ السحَرْ علّنا نخرج إلى الحياة الحقّ ونقتديك ونقتدي أمثالك من الشيوخ الأطهار قدوة، ومعك ومعهم خلف قبطان السفر نحلِّق في رحلة الحقّ.

كلمات من القلب

مارس علمه خالصا لوجه الله*

الدكتور حسان دياب

شرفني دولة رئيس مجلس الوزراء الأستاذ نجيب ميقاتي تمثيله في هذا الحفل المهيب الذي نستحضر فيه ذكرى عالم نابغة، مارس علمه خالصا لوجه الله، ووضعه في إهاب الحق فأضحى منارة مشعة في وطن الأبداع. وها أنا بينكم اليوم تتنازعني رؤى وصور لهذا الأخ الزميل الراحل الذي كان واحدا من الكبار بين أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت.

ما كنا نراه يوما في حرم الجامعة إلا متجها نحو مكتبتها، أو عائدا منها، حيث يقضي الساعات الطوال يعب ما يشاء من منابع العلم والثقافة، وما كنا نلمحه إلا متأبطاً خيراً، وخيرُه دائماً الكتاب. لقد تميز حقاً بروح جامعية عالية وانكباب متواصل على العمل والبحث العلمي الرصين، ممتشقاً سلاحين، سلاح العلم وسلاح الأيمان، يرفدهما إخلاصٌ وتضحية ومكارم الأخلاق، نراها تتجسد في اسم عائلته الكريمة، ولا غرو فهو ابن الشيخ نسيب، ذلك الفنان الخطاط الكبير الذي عايشه وتأثر به فكان أن نشأ الصغيرُ على ما كان والده: «إن العروق عليها ينبت الشجر.»

أيها الأعزاء، لقد رحل الدكتور سامي مكارم عن هذه الفانية وهو في عز عطائه، فكرا وأدبا وفنا وشعرا، وإذا كان لغيري أن يتحدث عن الراحل العزيز صوفياً مريداً، وسالكاً منجذباً، ومفكراً توحيدياً بجذوره الأصيلة، وواحداً من كبار رموز الثقافة في الطائفة الدرزية الكريمة، فلا بد لي من التركيز على جانب آخر من الإشراق الذي تشبعت منه روحه، ألا وهو الفن الإنطباعي الذي جسده في الحرف العربي بعد أن وجد فيه

*كلمة معالي وزير التربية والتعليم العالي الدكتور حسان دياب في احتفال التكريم.

مجالا واسعا للفن التشكيلي، لما ينطوي عليه من الجمالية والإبداع، فإذا بالريشة في يده تتحرك بين أنامله كصنوها الإزميل، يتلاعب بها فيكاد الحرف أن ينطق على الطرس، يرسمه، فتسري فيه رعشةُ الحياة مستمدة نسغها من فكرٍ نيّرٍ وبصرٍ حديد. وإذا بنا أمام نماذج جديدة من الخط العربي تنم عن عبقرية فنان عاشق للكلمة، معنى ومبنى، يرى من خلالها وجهَ الحق، ومجسّداً فيها قيم الحق والخير والجمال. وهكذا كنا نسعى إلى المعارض العديدة التي أقامها هنا وهناك لنستمتع بكل جديد من روائع نتاجه البديع.

أتوقّف عند لوحة لسامي مكارم تظهر قوة إيمانه، خطّ فيها عبارةَ «والله يعصمك من الناس»، وهي من آيات القرآن الكريم، وهل من عاصم غير الله؟ وثمة لوحة أخرى له تكاد أن تكون منمنمة أحتفظ بها وهي أثيرة لدي على صعيد النسب، لكونها تحمل عبارة «يا مولانا» وهو نداء الدرويش المولوي المؤسس الطريقة، الصوفي الأكبر مولانا جلال الدين الرومي.

فيما نحن نستحضر ذكرى الدكتور سامي مكارم رحمه الله، يطيب لي أن أردد بفخر واعتزاز: أننا نحن زملاؤه في الجامعة الأميركية في بيروت، قد عايشناه على مدى سنوات طوال فوجدنا فيه إنساناً مشرقَ الابتسامة، حلو المعشر، صافي الطوية، عالي الهمة، لا تكاد تسمع منه إلّا ما هو ليّن الوقع على السمع مما يرسّخ في النفس قيم المحبة والإخاء. لنسمعه يقول في إحدى قصائده:

«يغنّي ولا طيرٌ يعادله غنا ويبكي على بُعدٍ ويبكي على قُربِ
يروح إلى غصنٍ فيقتله الهوى ويغدو إلى غصن... فيقضي من الحبِّ»

مشيراً إلى أن الحب هنا لدى الصوفي هو رمز للعشق الألهي، ألا طيب الله ثراه.

باسم دولة الرئيس نجيب ميقاتي وباسمي أعرب للعائلة الكريمة عن خالص المحبة والتقدير.”

هذا هو العارف*

المطران جورج خضر

بعد أن مسحت الغبار عن المرآة، أصارحكُم أنَّني أمام هذا الكتاب في ذهول الخاشع أو ما نسمّيه في التصوُّف الأرثوذكسي السّكر الصّاحي.

هذه وحدة القلوب المنكسرة في حضرة الربّ.

هذه سطور إلهيَّة تذكّرني بما وردَ في أدبنا النسكيّ حيث قرع واحدٌ بابَ السّماء فسألهُ الله من داخل: مَن الآتي؟ قال: أنا. فلم يفتح له. ثمَّ سأله: مَن الآتي؟ قال: أنا، ولم يفتح، حتّى سألهُ ثالثة: مَن الآتي؟ قال: أنت.

الّذي ينسى أناه المنغلقة حتَّى يلاشيها، هذا هو العارف. وتقولها يا عزيزي على أبهى ما يكون عليه القول.

الكاتبُ هنا يغدو مُسارّ الله كما نقول في الليترجيَّة البيزنطيَّة. ومعنى ذلك أنَّك دخلتَ إلى سرِّ ربِّكَ بعد أن كشفَ هو سرَّكَ فقرأك وسمح لك أن تقرأه في ما نسمّيه دعاء القلب.

* ممّا قاله سيادته في كتاب "مرآة على جبل قاف".

سامي مكارم طائر غرد في سماء الربيع

د.فوزي صلوخ*

شق عليّ سماع الخبر، خبر وفاة الشيخ التوحيدي، الدكتور في الفلسفة، أستاذ اللغة العربية، الأديب الأديب، الشاعر المرهف، الباحث العلامة، العارف بالتصوف، المتعمق بالتراث الدرزي التوحيدي، الفنان الروحاني الذي جعل عدداً من الآيات القرآنية لوحات فنية بهية تعبق بالإشعاع الإيماني العميق. إنه خبر وفاة سامي نسيب مكارم الأخ والرفيق والصديق والزميل والجار الرضي، فيا لهول المصاب الجلل. لقد وجمت لمعناه الألسن وجزعت لفقده النفوس.

منذ نيف وستة عقود تزاملنا وتآخينا في الجامعة الأميركية في بيروت، ونحن في الجبل تبعد المسافة بيننا رشفة زهرة من مختلف أزهاره الطيبة الأريج. مقاعد الجامعة في ساحاتها الفسيحة التي تسيطر عليها مهابة العلم ورصانة الدرس، ورصيف البحر لدى هدوء الأمواج وعصفها، شاهدة أمينة على أحاديثنا، على تحاورنا، على مراجعة الدروس، على ما كنا ندرسه ونتعلمه عن الفلسفة اليونانية وأساطينها الثلاثة، والفلسفة الإسلامية وأعلامها الكبار كابن رشد والفارابي ومسكويه، أربع سنوات قضيناها في نعيم لا يملّ. فسامي طيب المعشر، سريع النكتة، جذاب في حديثه وأخاد في صداقته.

* وزير الخارجية السابق، وأمين عام الجامعة الإسلامية سابقاً.

وتزاملنا في التدريس في الكلية اللبنانية في سوق الغرب لمدة سنتين ثم افترقنا، غادرت لخدمة الوطن، وغادر لطلب المزيد من العلم والمعرفة لخدمة الإنسان. ثم نعود لنلتقي في المدينة، العروس، بيروت فيأخذ الجيل الثاني عن الجيل الأول ما توطد بينهم من أواصر الزمالة والصداقة والمحبة، هذه الأقانيم التي زاد تماسكها وارتباطها رضا الوالدين فكان التأثير الإيماني بيننا ظاهراً فانعكست على سلوك الجميع نصائح وإرشادات ذلك العبقري المؤمن "العم أبو سعيد" الشيخ نسيب مكارم.

لقد أغنى الدكتور سامي مكارم المكتبة الإنسانية بستة وعشرين مؤلفاً في مختلف الحقول اللغوية والأدبية، والتراثية، والفلسفية، منها ثلاثة مؤلفات شعرية ولج فيها سامي التصوف من بابه الواسع وتعمق حتى بلغ مراده التجاء وتقرباً ووصولاً. لقد جعلته هذه المؤلفات، حقاً، علماً من أعلام الفكر الإسلامي والتراث التوحيدي وأستاذاً فذاً في مادتي التصوف والإسلاميات. كما أخبرني مؤخراً انه انتهى من إعداد ثلاثة مؤلفات جاهزة للطبع، منها مؤلف عن سيرة حياته، هذه السيرة الغنية الثرية بالعلم والمعرفة والبحث والتنقيب والتمحيص.

تجدر الإشارة إلى أن كل ما كتبه ونظمه ورسمه الدكتور سامي لم يكن لمنفعة شخصية، وأنا دريّ بذلك، بل كان القصد من جمع هذه الثروة ونشرها خدمة للمجتمع الذي عاش فيه وانصهر به. وقد عرف سامي أن العقل بسلطانه

واللسان ببيانه فاستمر في السنين الأخيرة،من حياته المليئة بالعمل والجهد والمثابرة والحركية الدائمة، أشبه بالطائر الغرد في سماء الربيع الطلق، يتنقل من مدينة إلى أخرى، ومن بلد إلى ثان وثالث ليلقي محاضرة هنا، ويشارك في مؤتمر هناك أم ليثري المجامع ببحث قيّم يفيد منه السامع والقارئ والباحث.

الشيخ سامي، نحن ممن يؤمنون بالقضاء والقدر، كما نؤمن بأن الله يبتلي المؤمنين من عباده وينتقي الجواهر من مخلوقاته. بالأمس الأمس سعيد، والبارحة زين، واليوم أنت يا أخي.

لقد تحطّم العود، وتقطعت الأوتار وانكسرت الريشة "فمن يغني على عود بلا وتر". طيب الله ثراك وجعلك في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

السفير ٢٠١٢/٨/٢٤

سامي مكارم، عاشق الله

البروفسور الأب يوسف موّنس*

المنوّر المتصوف الصديق سامي مكارم جمعتني به هذه العقلانية العاشقة لله، العرفانية، الفائضة محبة للعقل وللإنسان، غارق في عالم التنسك والصوم، متعال عن المادة كما صنوبرات الجبل الذي أتى منه.

عاش في حضرة القدوس الأعلى بنفس متحررة من الالتصاق بالذات ليصل إلى الحالة الملائكية المنزهة عن المعاصي والفسق والافك والنفاق متعرياً عن ترابيته وشهواتها امام العقل السامي المشرق والمحرق كالشمس.

إنه أمام البهاء الإلهي، مسحور بالجمال، مفتون بالعرفانية والتجليات الإلهية في اختبار صوفي، متمسك بالعقل والحدود التي لا تسمح بالعقد النفسية وشبق الغرائز الغارقة بوحل الجسد والخطيئة والشهوة البدنية «الليبيدينية» من الجبل الى عيتات وسكون المدينة بعقل أكاديمي معرفي، موسوعي ولم تلونّه المدينة بموبقاتها بل كان فيها وكأنه في منسكة او صومعة تلتهب فيها نار الحضور الإلهي حتى الفناء في العرفان والعقل والإشراق (كتابه عاشقات الله) في زمن البربريات الجديدة، التي نعيشها كما كتب برنارد ليفى البربريات ذات

* أمين سر اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام.

الوجه الإنساني زمن منع حق الاختلاف والافتراق او زمن الغيرية alterité زمن منع حرية الايمان والحب والفكر، زمن التكفير، وامتلاك حق الله على عقول وقلوب الناس ومنع حرية الاختيار عنهم، لأنها وحدها الحرية تعطي للإنسان كرامة شخصه البشري، في زمن العقل والعرفان ووأده في ظلاميات الفكر الديني، وذبح الناس وحز الرقاب وقطع الرؤوس ونحر وقطع الأعضاء نحتاج اليوم فيه إلى عقل منوّر وفكر مشرق كفكر الصديق سامي مكارم متميز بالمحبة والاحترام والرقة والحنان وهذه «اللياقة الدرزية» التي عرفتها في قريتي في الشبانية وفي محيطي الماروني الدرزي في المتن الأعلى. أعتقد ان زمن الوثنية حيث كان احترام عباد الالهة المتعددة واشادة أماكن عبادتها حرة من أهم ازمنة الحضارة الانسانية. أليس البارتنون الإغريقي ومدينة الشمس بعلبك مثالاً على ذلك؟ صديقي الدكتور مكارم يبقى لنا شخصك الفاضل وفكرك العميق وكتاباتك الأكاديمية الموسوعية الجامعية، نبعا لاغتناء العقل والقلب في زمن القحط الروحي والأخلاقي والمعرفي أعطانا الله بأمثالك لنبقى في الحب والإشراق والنوررانية والعقل والعرفان.

الاثنين ٢٢ تموز ٢٠١٣

فقيد العرفان والوحدة
الشيخ سامي مكارم

العلامة السيد علي فضل الله*

لا يذكر السلم الأهلي الدائم في لبنان إلا ويذكر اسمه ولا يجري الحديث عن الحوار الحضاري ودور الثقافة في صناعة السلام إلا ويأتي اسمه كواحد من أبرز المؤسسين الأوائل لنهج الحوار وأدبياته .

وبقلمه فتح للفكر الإسلامي فضاءات معرفية أساسها التوحيد والوحدة وكان الوفي على ميراث شيوخه وأساتذته ولم يخف في أعماله كلها جوهرة – العرفان – التي بدأ فيها وانتهى إليها واثقاً من أ ن حضارة الأمم والشعوب شديدة الاتصال بحضارة الذات وتربيتها على معاني رقيها بالتعارف والتواصل التي ازهرت في طموح تلاميذه ومؤسساته وأصدقائه حدائق أخلاقية قل نظيرها في مناهج الفكر والأدب والفلسفة .

ولقد عرفته معاهد لبنان والشرق من أوائل المؤسسين لفكرة تصحيح الصور النمطية عن الطوائف الدينية في عالمنا العربي والإسلامي ولا تزال كتاباته عن عقائد الموحدين من أهم المصادر التي يرجع إليها الباحث في تاريخ المسلمين ومذاهبهم ليكشف من وراء ذلك لا عن الإسلام في مفهوم التوحيد الدرزي فحسب بل عن الإسلام في مفهومه الكوني الأرحب انطلاقاً من وعيه وإيمانه العميق بتجليات الحكمة الإلهية في

* رئيس مؤسسات المرجع السيد محمد حسين فضل الله.

الكون والإنسان , وعلى ذلك رصد ظهورات التدين العميقة عند مختلف المذاهب مؤكداً على وحدة مراميها العليا في بناء المجتمع الفاضل والإنسان الكامل والتدين الذي لا يقطع أواصر القربى بين أبناء الأمة الواحدة .

وفي ضوء ذلك كتب عن فلسفة التقية ليؤكد أنها لم تكن مقتصرة على الموحدين الدروز فهي من مفاهيم القرآن الراسخة في عقائد المسلمين جميعاً مع ملاحظة أن هذه التقية ليست قائمة على رغبة هذا المذهب أو ذاك بالانعزال عن المذاهب الأخرى بل على فضيلة الحرص على وحدة الأمة بعيداً عن المماراة والجدل الذي يقودها إلى الانقسام والتفرق في الدين أو الواقعية عندما تكون الظروف ضاغطة.

ويمكن القول إن الدكتور سامي مكارم قد رفع الستار عن حقائق الإيمان بثوابت العقيدة الإسلامية الدرزية وربطها في العديد من أبحاثه ودراساته بالرحمة والرحمانية والمحبة عند الموحدين وأثرها العميق في بنيان الوحدة الوطنية التي نذر عمره الشريف لأجلها ولا سيما في الموقف من الأديان والمذاهب بعامة والمسيحية العربية بخاصة.

كذلك اتسعت آفاق الدكتور مكارم لقضايا الحوار بين الأديان والثقافات ملتزماً بمنهاجه الأكاديمي وأخلاقه العلمية ليلفت أنظار العلماء إلى أن قضية إثبات الخصوصيات الدينية لا تبرر إطلاقاً ظاهرة الانزلاق إلى التعصب والقطيعة فكان رحمه الله أكثر ما يكون وقوفاً عند القيم المشتركة ليبني عليها بنيانه المرتفع عن غرائز المغالبة فيما يختلف عليه المتكلمون باسم الدين من تأويلات أو تفاسير تجنح أحياناً إلى إغلاق الينابيع الروحية الأولى لأعظم ما في تراثنا الديني من توحيد وقيم .

إن تخصص فقيد العرفان والوحدة في الفلسفة الإسلامية وأديان الشرق الأوسط منحه تلك الميزة المعرفية التي لا يستغني عنها رجال الحوار في مواجهة التحديات الراهنة وفتنها المتنقلة من جهل إلى جهالات تمعن في تشويه صورة الدين ودوره في سلام العالم والأمم.

وإن ما يميز الدكتور مكارم والذي يمثل معلماً من معالم شخصيته هو الصوفية بامتياز، لكنها ليست الصوفية الشكلانية التي تزايد في مراكمة الكلمات والجمل بقدر ما تسعى إلى الخوض في الفكرة، تلك التي ترتسم في نتاج د. مكارم كجسر عبور إلى الهدف من خلال الفكرة الخالصة للمحبة.

في مقالته المحبة بين المسيحية والإسلامية يقارن د. مكارم بين مفهوم المحبة في الإنجيل وما يقاربها في التراث الصوفي الإسلامي ليصل إلى نتيجة مفادها أن الغاية هنا وهناك، محاولة محق "الأنا" المنفصلة والعمل على فنائها للوصول إلى المحبة الحقيقية. يقول الدكتور مكارم في كتاب "العرفان في مسلك التوحيد": " ليس الحب في مسلك التوحيد حالة عقلية أو فكرية فحسب، وليس حالة عاطفية أو ذوقية فحسب، وليس حالة روحية أو حسية فحسب، هذه كلها وجوه لحقيقة واحدة هي ذاتك التي هي مظهر من مظاهر الناسوتية. ذلك لأن الذات الإنسانية إنما تتحقق بالله فتصبح مظهراً له تتطهر بحبه ذلك هو سر الحب(ص٤٥).

ومن الحب، حب الله، وحب الناس، وحب الناس لله وحب الله للناس، دخل في فلسفة د. مكارم اللاهوت بالناسوت وبات التصوف صلة الوصلة بين المساحتين

المفترض أن الحدود بينهما قائمة على التعارض فإذا بها مع د. مكارم متداخلة إلى الحدود التي جعل الحب من كلا المساحتين مساحة واحدة والتحق بذلك بكبار المتصوفة الذين رأوا في الله كل ما يشير إلى وحدة الوجود..

أراد د. مكارم أن يجرّد الصوفية من تصنيفاتها المذهبية، ليجعلها بساط المحبة الجامع لكل أتباع المذاهب والأديان. فالتصوف هو حالة التخلي الذاتي والإرادي عن الانقياد إلى مفاتن الدنيا ومباهجها والتطلع إلى آفاق الله الواسعة طلباً للقرب وابتغاءاً للحب، وليس أجمل من الحب محور اجتماع الإنسان وبيئته الإنسانية الحاضنة حيث الحضور الإلهي يتجلى في القلوب ويحتل كل مساحاتها، ولا يعود من مساحات أخرى لغير الحب، والحب لله وفي الله وحده.

هكذا تبدو رسالة د. مكارم التوحيدية الوحدوية وهي جديرة بأن تقرأ وتناقش، خصوصاً وأنها تقوم على الاجتماع حول محور حب الله.. وليس كما يفعل الآخرون الذين يجعلون في إدعائهم حب الله حاجزاً بينهم وبين الآخرين، يبعّد المسافات، ولا يحقق اللقاء، فيصبح عندهم حب الله مدعاة للفرقة بدل أن يكون عاملاً للجمع بين أتباع الديانات السماوية المختلفة.

هكذا ارتقى د. سامي مكارم بصوفيته إلى الحدود التجاوزية تجاوز الذات والطائفة والمذهب إلى جوهر الدين الذي تستقيم على أساسه كل المذاهب والأديان دون أن يدّعي تخليه عن مذهبه الذي يبدو من كل ما كتب وألّف أنه موضع محبته دون عصبية أو تعصب.

رحم الله العارف الدكتور سامي مكارم أديباً ومفكراً ومؤرخاً أغنى المكتبة العربية والإسلامية بروائع أعماله المفعمة بحب الله والإنسان وحسبه أن يترك من شعره وأدبه وصوفياته الشيء الكثير عن رؤاه المستقبلية لحوار الحضارات ولئن كان والده الراحل قد رتل بالخط العربي معجزة الكتابة بالحرف العربي الدقيق على حبة الأرز فقد رتل راحلنا بالحب الإلهي معجزة ما تصنعه المحبة على حبات القلوب وذلك بوسيع ما أنعم الله عليه من جمال الكلمة وسلام التسامح وبلاغة المطابقة بين القول والموقف.

سامي مكارم
الباحث والأكاديمي*

رمزي بعلبكي*

أنَّى لي أن أوجز القول في سامي مكارم الباحث والأكاديمي وقد أُلزمت بدقائق معدودات ليس لي أن أتعدّاها؟ كنت أودّ، إلى الحديث عن هذا الجانب من الشيخ سامي، أن أعرّج على بعض من جوانب أخرى كثيرة، فلقد كان الرجل متعدّد المواهب، بل يندر أن يجتمع في رجل واحد ما جمعه الحبيب سامي في هيئة رجل واحد. كنت دومًا أشبّهه بعالم من علماء القرن الرابع الهجري، هو محمود بن حسين الرمليّ، ذكرتْ كتب التراجم أنه لُقِّب بـ "كُشاجم"، وهو لفظ منحوت، فالكاف من كاتب، والشين من شاعر، والألف من أديب، والجيم من جواد، والميم من منجِّم؛ ولما برع في الطبّ زيدت الطاء في أوّل لقبه فصار "طكُشاجم". ولو نحن أردنا أن نضع للشيخ سامي لقبًا على هذا النحو، فبالله عليكم من يهديني إلى وِزان عربيّ يستوعب كلّ مواهبه ويوفّيه كلّ حقّه؟ أقول هذا راضيًا بمشيئة من ألزمني موضوع الكلام؛ وما أيسرَ الأمر، فقد رضينا فيك يا شيخ سامي بأعظم من هذا... رضينا فيك بمشيئة الله تعالى وسلّمنا بحكمته وقَدَره.

* كلمة الجامعة الأميركية في حفل التكريم: ٢٠١٣/٨/٢١ _ قصر الأونيسكو.

* أستاذ كرسي جُوِيت للدراسات العربيّة الجامعة الأمريكيّة في بيروت.

قد يخيَّل إلى السامع أن الحديث عن سامي مكارم باحثًا وأكاديميًّا إنما هو حديث بسيط غير معقَّد أو ساذَج غير مركّب. كلاّ؛ فهذا حديث ذو شجون، يتشعّب بتشعّب معارف الشيخ سامي وأبحاثه، من الدراسات الإسلاميّة والفلسفيّة، إلى التصوّف الإسلامي، إلى تاريخ الموحِّدين الدروز وعقيدتهم، إلى الدراسات الإسماعيليّة، إلى تاريخ لبنان الحديث. ولعلّ من أهمّ دراساته الإسلاميّة كتابه "التقيّة في الإسلام"، وهو بحث تنكّب فيه الغوص على عدد من المسائل الجوهريّة المتّصلة ببابه: فهل في الإسلام تقيّة، أم إن التقيّة هي في مذهب دون آخر من مذاهب المسلمين؛ وهل التقيّة في صلب العقيدة يُعاذ بها في أحوال محدَّدة، أم إنها سلوك إسلاميّ مكتسَب يماشي ظروفًا وأحوالاً طارئة؛ وكيف تختلف المذاهب الإسلاميّة في مقاربة التقيّة وممارستها؟ في كلّ هذا يَجْبَهك الرجل بثلاث: سعة المعرفة، والموضوعيّة، والاعتدال؛ وتلك خصال لازمته في أبحاثه جميعًا، على ما في بعض موضوعاته من جوانب كانت قريبة إلى قلبه ووجدانه. فقد أُعجب الشيخ سامي بالحلاّج شاعرًا وفيلسوفًا وشهيدًا، وليس هذا بخافٍ في كتابه "الحلاّج في ما وراء المعنى والخطّ واللون"، إلا أنه في تناوله الحجّاج جمع بين الدقّة التاريخيّة والتحليلين العقائديّ والأدبيّ، فزاوج بين نظرته الموغلة في الإعجاب والدَّهَش وبين تحليل الباحث الموثِّق والدارس المتفحِّص. هذا ناهيك بدراساته المتّصلة بسِيَر النساء الصوفيّات العابدات الزاهدات، وقد خصّهن بكتابه "عاشقات الله"، وهو من أروع ما يُقرأ وأمتعه .

وتناول الشيخ سامي بالبحث والدراسة تاريخ الموحِّدين الدروز وعقيدتهم، معرِّفًا بمسلك التوحيد ومضيئًا على بُعده العرفانيّ، كما كتب أبحاثًا معروفة في العقيدة الإسماعليّة وفي مفهومها للإمامة والأمر الإلهي وارتباط هذين بالبُعد السياسيّ للعقيدة. وقد غدا الشيخ سامي، ولا سيّما في دراسته عن الموحِّدين الدروز، عَلَمًا

والموسوعات الكبرى، ويُدعى إلى الندوات المتخصّصة في أرقى الجامعات، أو يُسعى وراءه ليُحاضر في مراكز البحث المرموقة، وقد ظلّ إلى آخر سِنِيّ عمره يضرب في مشارق الأرض ومغاربها تلبيةً لدعوة تلك المراكز التي عرفت مقدار علمه فكرّمته، وحُقّ له.

ولم يكن لبنان بغائب عن دراسات الشيخ سامي، فقد تناول في دراساته جوانب من تاريخه الحديث. ولعل خير شاهد على ذلك كتابه "لبنان في عهد الأمراء التنوخيّين"، وهو حقًا دراسة ضافية عن أصول تنوخ وتاريخها قبل الإسلام وعن التاريخ السياسيّ والعسكريّ والأدبيّ للأمراء التنوخيّين اللخميّين في لبنان. وقد امتازت مؤلّفات الشيخ سامي ــ وهي بالعربيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة ــ علاوةً على العمق والموضوعيّة وقوّة الحجّة، بأسلوبه المتميّز بالطِّلاوة، فابتعدت عن الجفاف العلميّ، وجاءت سهلة القراءة على عمقها، تدخل في العقل والقلب، كما أرادها أن تدخل. وظلّت أبحاثه خلال ما يربو على نصف قرن من التدريس الجامعيّ، مادّة حيّة يتداولها وطلاّبه في حقول اللغة والأدب والفكر والعلوم القرآنيّة والتصوّف، فلم يكن علمه أسير مَحْبِسه بصورته المطبوعة، بل اكتسب حياةً جديدة في نفوس طلاّبه ومريديه. ولما كانت زكاةُ العلم تعليمَه، لم يكتفِ سامي مكارم الأكاديميّ يومًا بأن يزوِّد طلابه بالمعلومات الملقاة في بطون الكتب يقع عليها من يطلبها في مظانّها، بل كان من دأبه تدريبُ الطالب على التفكير المنطقيّ المتجرّد، وعلى حبّ البحث عن الحقيقة، فالعلم عنده وسيلة للحكمة، والمعلومة طريق إلى المعرفة. ولا عجب بعد ذلك أَنْ أحبّه طلاّبه ونهلوا من عُبابه الزاخر، ولا أعرف أنه بَخِلَ عليهم يومًا بالوقت أو النُّصح، نُصح العالم ونُصح الوالد على السّواء.

وسامي مكارم، المفكّر والمؤرّخ، يمتاز بحسّ رفيع يميّز به الغثَّ من السمين، فهو يعرف ــ وقلّ ما يعرف ــ كيف يغوص على الجوهر ويهمل العَرَض. وقد توخّى في كتاباته جوهرًا فردًا هو الإنسان، يلج إلى أعماقه، إلى طبائعه، وإلى غايته في الوجود، إلى الإنسانيّة بمعناها الأسمى، إلى علاقة الإنسان بالله وبغيره من الناس، إلى علاقته بالفكر والروح والمجتمع والعالم. وليس من شيء أدلّ على ما أذهب إليه من دراساته المتّصلة بتاريخ لبنان والمنطقة، فقد صنّفها واعيًا مواطن القوة والضعف في مجتمعاتنا، دارسًا الأسباب والنتائج، مدقِّقًا في الروايات، متجنّبًا المبالغات، ينظر في ذلك كلّه إلى الإنسان، يحدوه أن يبثّ فيه قناعتين راسختين عنده: أولاهما إيمانه بالدين انفتاحًا ومحبّة لا طائفيّة قبَليّة، وثانيتهما إيمانه بلبنان وطنًا منفتحًا على عروبته، ذا رسالة إنسانيّة خالصة من الشوفينيّة التي تعميه عن الأدواء وتعيقه عن تأدية دوره المميَّز.

يا شيخ سامي... إنّنا حين نكرّمك في غيابك إنما نردّ لك النزر اليسير مما أغدقتَه علينا علمًا وتنويرًا وكتابةً إبداعيّة وفنًّا تشكيليًّا. فحسبك ما أعطيت، وهنيئًا لنا أننا تعاصرنا مع رجل ندرك يومًا إثر يوم معنى فَقْده، ونزداد اشتياقًا إلى ذاك الدفء الذي عرفناه في نبرات صوته، وفي حنانه ورقّته، وفي كلماته وخطوطه. فألف ألف شكر وألف ألف سلام.

لحظة صوفية مكارمية

الأب الدكتور جورج مسوح*

عالم التوحيد هو عالم سامي مكارم. عالم العشق الإلهيّ هو عالمه. دينه ودنياه الحب والحرية يحياهما شوقاً وترحالاً الى لقيا من "ليس كمثله شيء".

الله هو المبتغى، هو الأول والآخر، وما بينهما عبور وجيز، إطلالة وجهٍ، بسمة."كن عابراً"، فتكن أبدياً.

المبتغى هو الله، الألف والياء، وما بينهما حروف خطّها صاحبنا "في ما وراء المعنى واللون". القرطاس عطشان، يرويه المداد الذي لا ينفذ، تولد اللوحة. لوحة ترميك في حضرة أول من رسم، الفنان الأول، خالق الألوان. في حضرة من جعل قوس قزح عهدَ توبة وندم بينه والبشر بألّا يكرّر مأساة الطوفان.

إله التوحيد هو إله. والتوحيد متعدد بتعدّد العشاق ولغاتهم. والعشاق، وإن قالوا الحب ذاته والوجد ذاته، لا يستعملون لساناً واحداً. لكلٍّ منهم أسلوبه ونكهته وطيبه. لن تصمد اللغة الخشبية، فالصلاة القلبية هي وحدها تخرق الحجب الى داخل الخدر الإلهيّ.

* رئيس معهد الدراسات المسيحية الاسلامية في جتمعة البلمند.

لا يدرك التوحيدَ سوى العاشق الذي يعجز لسانه عن النطق في حضرة المعشوق. حضرته تُصمِتُ أعظم الناطقين، وتُفحم المنطقيين. فتجعل أصحاب المعرفة كأنهم بدون معرفة. وهل المعرفة الحق سوى مطارحة العروس عروسه الهيام والأشواق؟

يتَّحد العاشق بإلهه فيصير "جسداً واحداً معه. عدَّ معي العشاق، يا أخي. يا إلهي!إنهم لا يُحصون. قافلة تتبعها قافلة، أفواج تليها أفواج، تنشد الحب وترتله ترتيلا. ليس رجل ولا امرأة، ليس أبيض ولا أسود، ليس مسيحيّ ولا مسلم، ليس موسويّ ولا عيسوي ولا محمديّ. ليس إلاّ هو، هدف الوصال.

إلهُ الجمال هو إلهُ سامي مكارم. الله الجميل هو الأثير لديه. تغيب أسماء الله القتالية، العزيز، الجبار، القهّار... وتفيض الأسماء الرحيمة، السلام، الكريم، الغفار، التوّاب... الله المحبة والرحمة والحنان والرقة. نشكر الله الذي جعل في أسمائه الحسنى رحمةً لعابديه كي يجد كلُّ مؤمن نفسه في إحداها. وهل ثمة دليل أقوى حجة من تعدد أسمائه للاستدلال على قبوله بالتنوّع والاختلاف؟

قارىء سامي مكارم يرتَبِك. ليس هذا القاريء هو نفسه قبل وبعد. عشقُ صاحبنا الإلهيّ يمسك في الصميم، يدغدغك بعد أن تسمع أغاريده المطربة وألحانه العذبة. لا بدّ من أن تعيد هندمة أوتار آلتك كي لا تعزف نشازاً.

مجازفة هي أن تقرأ سامي مكارم، لأنك ستكتشف أن الله المأسور في صورة نمطية أخذتها عن قومك صورة أخرى تحطم أصنامك وتجتثُّ كراهيتك لمن لا يماثلك

في الإيمان. فإن لم تكن شجاعاً ومحبّاً للمجازفة فلا تقرأه وابقَ في غياهب ظلماتك القصيّة.

يا مُريد الحلاّج ورابعة وعشاق الله وعاشقاته، صرتَ أنت نفسك شيخاً مُراداً. فليتعاظم مريدوك في كلّ الأديان والمذاهب. هي "شركة إيمانية" بيننا خطتها يد صانع الكلّ بما يفوق اختلافاتنا العقيدية هنا، وهناك أيضاً.

خذنا معك الى "جبل قاف"، لنصلّي هناك في الحضرة التي ليس بعدها حضرة.

سامي مكارم
العالِمُ . . الطيبُ المعشر*

د.رؤوف الغصيني*

غياب العلاّمة الدكتور سامي مكارم خسارة كبرى للفكر الإسلامي والأدب العربي وعالم الإبداع الشعري والفني. بفقده خسرت مؤسسة التراث الدرزي ركنا من أركانها ومفكرا لامعاً أغنى نتاجها وبذل جهده وفكره لتحقيق أهدافها، فاندفع بعزيمة وطموح لتثبيت دعائمها مؤسسة علمية أكاديمية تُعنى بتراث الموحدين الدروز وتبرز معالمه المضيئة، وتنفض عن بعض جوانبه غبار النسيان أو الإهمال أو التجاهل، وترد عنه حملات الافتراء والتضليل، وتغذيه بما يغني مساراته الفكرية والتاريخية والروحية.

منذ قيام المؤسسة بمبادرة من الأخ الشيخ سليم خير الدين عام ١٩٩٩، قدم لها الراحل الكبير عصارة فكره إنتاجا وتخطيطاً ودعماً، فوضع كتابين هما من أهم ما صدر عن المؤسسة، وشارك في مؤتمرين عالميين نظمتهما المؤسسة بالتعاون مع جامعة اوكسفورد في المملكة المتحدة، كما قام بزيارة أماكن مختلفة في العالم بحثاً عما ضاع أو خفي من مصادر التراث الدرزي، فتفقد مع بعض الباحثين المكتبات الكبرى في الفاتيكان وفي جامعات اكسفورد وسانت بيترسبورغ وشبه جزيرة القرم وغيرها. كما قام بزيارة الهند برفقة رئيس المؤسسة الشيخ سليم خير الدين بحثاً عن مصادر لعقيدة التوحيد قد تكون استقرت في تلك البلاد. وكانت لهما في مدينة بومباي ومنطقة

* كلمة مؤسسة التراث الدرزي في حفل التكريم، ٢٠١٣/٨/٢١ _ قصر الأونيسكو.

* عضو مجلس الأمناء، مؤسسة التراث الدرزي.

كوجورات لقاءات مثمرة مع جماعات ذات اصول فاطمية، بينها من موّل واشرف على إعادة إعمار مسجد الحاكم بأمر الله في القاهرة. وكان اتفاق على استكمال البحث في سُبل التعاون في زيارة ثانية كان موعدها الصيف الماضي، فإذا بالصيف الماضي ينتزع الفقيد الغالي من بيننا دون إنذار في لحظة قدر غادرة.

صدر للدكتور مكارم عن مؤسسة التراث الدرزي كتابان تناول احدهما جانباً هاماً من جوانب الفكر الإسلامي هو كتاب "التّقية في الإسلام". والكتاب دراسة دقيقة ومعمقة لموضوع التقية عند مختلف الفرق الدينية والسياسية الإسلامية. وتُظهر الدراسة بوضوح وتفصيل أن التّقية لم تقتصر ممارستها على فرقة إسلامية دون أخرى، بل كانت مسلكاً لجأت إليه مختلف الفرق في ظروف خاصة بكل منها ولغايات ذات صلة بمعتقداتها وسياساتها.

أما الكتاب الآخر الذي وضعه الراحل الكبير بالتعاون مع المؤسسة فهو "العرفان في مسلك التوحيد"، وقد صدر حديثاً بطبعته الثالثة. ولعل الأسطر الأولى في مقدمة الكتاب تعتصر ما سيرد فيه من شرح وتحليل للصلة بين عقيدة التوحيد والعرفان. يقول الدكتور مكارم رحمه الله:

"عندما يكتب المرء في التوحيد يرى نفسه يكتب في العرفان. ذلك لان التوحيد هو العرفان الذي ينكشف للمرء إذا أحب الله لذاته تعالى. أو إذا سعى مخلصاً إلى هذه المحبة دون أية أنائية تحجبه عن الواحد الأحد، فإذا هو في الله وبالله، وإذا هو يرى الأشياء فيه وبه ومنه واليه سبحانه. إذ ذاك يدرك العرفان فيدرك التوحيد." (ص١١).

وفي الكتاب من الوضوح والسلاسة والبلاغة في التعبير ما يشدّه إلى القارئ، وفيه من العمق وسعة الرؤيا ما يجعله مرجعاً أصيلا للتعريف بمسلك التوحيد وبُعده العرفاني، ما حدا بالمؤسسة أن تقرّر نشره باللغة الإنكليزية تعميماً للفائدة على نطاق عالمي. فعكف الدكتور مكارم، رحمه الله، على ترجمته وقد أنجزها. وتأمل المؤسسة إصدار الطبعة الإنكليزية قريباً بإذن الله. وعدا ذلك كله، كان للفقيد الكبير مع المؤسسة خطة مستقبلية شملت العديد من مشاريع الكتب والمؤتمرات.

لقد كرّس سامي مكارم حياته للبحث في التراث. وها هو اليوم يمسي جزءاً من هذا التراث بل منارته. وها هي أعماله ومؤلفاته وسيرة حياته تزيد التراث غنى وإشراقا.

لقد ترك غياب الراحل الكبير فراغاً هائلاً في الميادين المتعددة التي نشط فيها بعزيمة وإيمان والتزام مطلق. وسيمضى وقت طويل قبل أن يملأْ هذا الفراغ مفكرون ومبدعون وعلماء دين ودنيا من طينته ومكانته. هذا الرجل الذي طبعت شخصه وسلوكه خصال المحبة ودماثة الخلق والصدق في القول والمعاملة وطيب المعشر، فإذا هو قريب من الناس، كل الناس، وإذا ابتسامته الدائمة وتواضعه الجمّ يبعثان الراحة في نفس كل من يلتقيه. هذا العالم العلاّمة، المفكر المبدع، الذي اكتنز مواهب الشعر والفن وعبّر عنها في وجدانيات رائعة وفي لوحات فنّية مضيئة تؤاخي لوحات والده الخطّاط الكبير المرحوم الشيخ نسيب وبراعة أخيه أستاذ الخط المتميّز الشيخ سعيد رحمهما الله. إنها دوحة مكارمية فذة أعطت الخط العربي وهجاً وحياة وحركة، ومزجت جمال التعبير بجمال الخلق وعمق الإيمان.

إن مؤسسة التراث الدرزي التي أعطاها الفقيد الكبير الكثير الكثير من فكره وجهده وعاطفته ستحفظ ذكراه بالمثابرة على العمل لتحقيق الأهداف التي سعينا معاً من أجلها.

نتقدم بالتعزية من جديد إلى زوجته السيدة ليلى، التي حرص الفقيد الغالي على الإشادة بمؤازرتها له في كل أعماله، والى رند وسحر وسمير ونسيب وآل مكارم الكرام، والى أفراد "المجموعة" التي أحبها ورعاها واعتز بها. تغمده الله برحمته ورضوانه.

د. سامي مكارم ورابطة العمل الاجتماعي

السيدة سهير ابوزكي ابي فراج*

لم أكن قد ولدت عندما عمل د. سامي مكارم على تأسيس رابطة العمل الاجتماعي مع كوكبة من رجال الفكر والثقافة المؤمنين بضرورة وجود الرابطة ورسالتها، حيث ألقى أول محاضرة له عام ١٩٥٩ بعد أشهر من تأسيسها، وقبيل الحصول على العلم والخبر من الجهات المختصة، بحضور سماحة الشيخ محمد أبو شقرا والمعلم الشهيد كمال جنبلاط، وعدد كبير من المثقفين والمتنورين. فكان أول منبر أطل منه على المجتمع التوحيدي، وهو لا يزال على مقاعد الدراسة في القارة الأميركية.

وفي تسعينيات القرن الماضي، وعند تسلمي لمهام اللجنة الطلابية في رابطة العمل الاجتماعي، عملت مع الطلاب الجامعيين على سلسلة من النشاطات الثقافية والتربوية، تخللتها مناقشات حول مواضيع الإنسان والوجود، والأسئلة كانت كثيرة عن الآخرة، الموت، الحياة والدين. كانت أرواحهم عطشى، تتخبط بين الأنا والفراغ الروحي، تتوق إلى المعرفة ووعي الرسالة الانسانية التوحيدية. كان الشباب الجامعي يبحث عن ذاته، عن حقيقة وجوده، بعيدا عن العادات والتقاليد، وكانت مسؤوليتنا كبيرة، نحتاج إلى من يشبع نهم الجامعيين وفضولهم الروحي بطريقة علمية مبسطة تقربهم ولا تبعدهم، ووجدنا بأن الخيار الأول والأخير هو د. سامي مكارم عضو الرابطة الملتزم، والأستاذ الجامعي المتنور، الذي سافر وأبحر بعيدًا، ووضع بين أيدينا كتبه الثمينة.

* رئيسة رابطة العمل الاجتماعي.

إن العطش الروحي والصدى الطيب لأسلوب د. مكارم وبراعته في التواصل، ومراعاته درجات الوعي المتنوعة عند الافراد، جعلت هذه المحاضرة بداية لسلسلة من المحاضرات تعقد دوريًا في مركز الرابطة.

كنا نلتقي بغرض الإفادة مما كتب، مجموعة من الطلاب الجامعيين، لنسأل ونستفهم، فذاع صيت هذا اللقاء، وتوسع ليضم أهل الطلاب الجامعيين وأصدقائهم والجيران وغيرهم من المريدين. فلم يعد يتسع مركز الرابطة لجمهور د.مكارم الذي تعاظم حضورًا من جميع الأعمار المحتاجة إلى معرفة الحقيقة، حيث انتقلنا إلى صرح أكبر، إلى دار الطائفة الدرزية. وأصبح اللقاء أسبوعيا، ولغاية اليوم تلاميذ د. مكارم يكملون المسيرة وبذات الشغف الروحي.

عملت محاضرات د. سامي مكارم على تعريف الموحد على معتقده، وكشف الغشاوة المتراكمة من جهل الحقيقة، وصقل الجوهرة الكامنة في النفس، وذلك من خلال مساعدته على اكتشاف ذاته الإنسانية، وتحقيق غاية وجوده الزمني، والتحقق بحرية وسلام. كان قلبه يتسع للجميع، وصوته الهادئ ومقاربته العلمية ومحبته لخدمة الحقيقة حتى درجة العشق، كانت تشجعنا على التدرج في سلوك الدرب بثقة مطلقة بالأستاذ العارف الذي يعطينا الزاد، ويعيننا عل المسافرة في بحر العلوم والمعرفة، لنتمكن منها وتترسخ في قلوبنا. كان يحاور العقل ويستنهض النفس لتسلم الروح.

احتفلت الرابطة وجمهورها مع د. مكارم في عدد كبير من النشاطات والندوات واللقاءات الشعرية، والمعارض، وحفلات توقيع الكتب مع كل إصدار. فلا ازال اذكر تلك الليلة التي استقبلنا فيها مع زوجته الفاضلة ليلى في منزله الأثري في عيتات، حيث احتفلنا بتدشينه. المنزل العابق بالتاريخ والأصالة. البيت المعرض للكلمة التي تتعدى الحرف. كان الاحتفال شعريا بقراءات من كتاب"قصائد حب على شاطئ مرآة"، وترافق بابتهالات موسيقية على الناي والعود، وتغلغلت الكلمات في ثنايا أرواحنا، لتخال بأن هذه اللحظة لم تعد من الزمن بل هي كل الأزل.

وأخيراً اسمحوا لي أن لا أتحدث عن الجوائز التي منحته إياها الرابطة تكريما لعطاءاته اللامتناهية. بل أريد أن أحتفل معكم مكرمة مروره اللطيف بيننا في هذا الزمن الصعب. كان د. سامي مكارم الشمعة التي أنارت دربنا الروحي. فلنتذكر نقاوة رسالته ومسيرته التي سلكها من خلال العلم والعمل والرضى والتسليم والشوق للقاء الأزلي.

سامي مكارم الكاتب المتعدد شغلته النزعة الروحية

أ.سلمان زين الدين*

بعض الناس يُقيمون بيننا بهدوء، يُؤثرون الظل على الأضواء، فنكاد لا نشعر بوجودهم، حتى إذا ما رحلوا فجأة يكون لرحيلهم دويٌّ كبير، فندرك، بعد فوات الأوان، أيّ قيمة خسرنا، ونندم لعدم اغتنام نعمة حضورهم بيننا بما يكفي، ولات ساعة مندم. ومن هؤلاء الكاتب والاكاديمي سامي مكارم أستاذ التصوّف والإسلاميات في الجامعة الأميركية في بيروت، المؤرّخ، الباحث، الشاعر، والفنان التشكيلي... وقبل ذلك كله، الإنسان الكبير الذي عرف كيف يُزاوج بين علمه وعمله، ويجعل حياته مسلكاً لما يؤمن به. لذلك، نخسر، برحيله المفاجئ، قيمة علمية، وأخلاقية، وعرفانية، وفنية في آن.

يرحل مكارم عن حوالى ثلاثين كتاباً، مطبوعاً أو مخطوطاً، في حقول معرفية مختلفة؛ تعكس غنى ثقافته وتنوّع اهتماماته ضمن وحدة شخصيته. وتتراوح هذه الحقول بين التاريخ، والسيرة، والتصوّف، والعرفان، وتاريخ الأدب، وتحقيق النصوص، وأدب الرحلة، والشعر، والترجمة، والسيرة الذاتية...، وهو يتعامل مع كل حقل بما تُمليه طبيعة الحقل وآليات الاشتغال فيه.

* كاتب وناقد، مفتش تربوي.

في التاريخ، يعتمد مكارم منهج البحث التاريخي، ويتقصّى الحقيقة التاريخية في مظانّها، ويطاردها في عشرات المراجع باللغات العربية والانكليزية والفرنسية، فهو لا يؤرّخ عن هوى، ولا يميل مع العصبيات على أنواعها، ونرى تطبيقاً لهذه المنهجية في كتابه "تاريخ الموحدين الدروز في المشرق العربي" الذي وضعه مع المؤرخ الراحل عباس أبو صالح، وفي كتابه الآخر "لبنان في عهد الأمراء التنوخيين".

في الفكر الديني التوحيدي، جاء كتابه "أضواء على مسلك التوحيد" ليضع الأمور في نصابها، ويجلو الجدل والملابسات التي أحاطت بهذا المسلك، ويُشكّل نظرة داخلية إلى التوحيد، من وجهة نظر أتباعه. وجاءت مقدمة الكتاب التي وضعها المفكّر كمال جنبلاط لتشكّل اعترافاً بأهميته، وتنويهاً بجهود مؤلفه في البحث والدرس والتقصي. وجاء كتابه الآخر "العرفان في مسلك التوحيد" ليثبت أن مكارم يحرث في حقله، ويقف على أرض يعرفها جيداً،

ويأتي إلى موضوعه من خبرة عملية / علمية، قوامها سنوات من التدريس الجامعي في التصوّف والإسلاميات، وسير كتبها للعارفين والعارفات، وبحوث تاريخية وإسلامية. فكان الكتاب نتاج معرفة عميقة تستند إلى التجربة والممارسة من جهة، وإلى البحث المعرفي من جهة ثانية، وشكّل شهادة شاهد من أهله.

في السيرة العرفانية، ينهض مكارم بعبء ثقيل حين يتناول ظاهرة عرفانية أدبية، في كتابه «الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون"، محاولاً جلاء غموض يحيط بهذه القمة من قمم التصوّف، من خلال استكناه ما يتعدى عالم الشهادة،

وتجاوزه إلى عالم الغيب. وفي الإطار نفسه، يدرس مكارم ظاهرة عرفانية . شعرية يُجسّدها الشيخ علي فارس في كتاب يحمل هذا الاسم، فيتناول سيرة حياته، ويقرأ شعره الصوفي الذي ينضح رقة ووجدانية، ويضعه في إطاره الطبيعي الصحيح، "إطار الإسلام بما فيه من عرفان ذوقي هو نتيجة حتمية لانتهاج الشريعة ظاهراً وباطناً، واعتقاد الطريقة مقاماً وحالاً، واعتناق الحقيقة مسلكاً وعرفاناً"، على حد تعبيره.

في أدب الرحلة، يكتب مكارم "ضوء في مدينة الضباب" فيتلمّس ضوء الحقيقة خلل ضباب الوقائع، في رحلة قام بها إلى لندن خريف العام ١٩٩٧ لثمانية أيام؛ ويدوّن خلالها انطباعاته ومشاهداته وتأمّلاته، ويتعدى الوقائع والمظاهر والأشياء إلى ما ورائها، ويتجاوز التفاصيل إلى السلك الذي ينتظمها، ويرى ما هو أبعد من العاديات واليوميات وأبقى. تحدوه رهافة في الحس، ونفاذ في الرؤية، ودُربة في الغوص على الأعماق، في حين يتلهى كثيرون بالوقائع والتفاصيل والسطحيات ويغرقون فيها، فيصرفهم سرابها عن الماء ووهمها عن الحقيقة.

في الشعر، لا يشذّ مكارم عن انشغاله بما وراء المظاهر والوقائع، فيتناول ما هو من متعلّقات الروح، ويحلّق في فضاءات صوفية تترفّع عن الماديات، وتجترح عوالمها الخاصة.

في الفن التشكيلي، ينشغل مكارم بالحروفية، فيكتشف الطاقات الكبيرة التي يكتنزها الحرف العربي، ويضفي من روحه وموهبته ما يكفي لاستخراج هذه الطاقات. فاللوحة عنده هي استخراج الإمكانات التشكيلية الكامنة

في الحرف العربي، فيتعداه إلى ما فوقه، ويجعل منه شرفة تطلّ على المطلق والفن والجمال.

على أن حضور مكارم الثقافي/ الحضاري لا يقتصر على الجانب التنظيري المتمثّل في إنتاجه المعرفي في حقول مختلفة، بل يتجاوزه إلى جانب تطبيقي يتواصل فيه مع طلاب العلم، والعطاش إلى المعرفة، والباحثين عن الحقيقة، فيقيم ندوات دورية، ويرعى جمعيات شبابية، ويكون له معجبون ومتابعون وطلاب. بذلك، هو لا يُنظّر من برج عاجي، بل ينزل إلى أرض الواقع، وينخرط في التطبيق.

إن تقصيرنا في التواصل مع سامي مكارم في حياته لا يوازيه سوى إحساسنا بدويّ رحيله المفاجئ. ولعل خير وسيلة للتكفير عن ذلك التقصير تكون بالعكوف على نتاجه القيّم، فنشبعه درساً وتمحيصاً، وننهل من مورده العذب.

الحياة – ٢٩ آب ٢٠١٢

سامي مكارم.. فكر نفتقد اتقاده العرفاني

د. صالح زهر الدين*

كثيراً ما كان المعلم كمال جنبلاط يردد قول هرمس الهرامسة: «واعلمي يا نفس أن الإنسان لم يخلق لمعنى من المعاني إلا للعلم والعمل به»...

وكم ينطبق هذا القول فعلاً على الدكتور سامي نسيب مكارم، الذي غيّبه الموت نهار الثلاثاء (٢١ آب ٢٠١٢)، وشيُّع إلى مثواه الأخير في مسقط رأسه عيتات (قضاء عاليه) نهار الخميس في الثالث والعشرين من آب ٢٠١٢، في مأتم حاشد، بحضور حشود من رجال الدين، من مختلف الطوائف اللبنانية، إضافة إلى شخصيات نيابية ووزارية وتربوية وسياسية واقتصادية وأكاديمية وعسكرية، ووفود كبيرة من معظم مناطق الجبل وحاصبيا وراشيا... ضمّت رؤساء وأعضاء المجالس البلدية والاختيارية، ومواطنين من مختلف الطوائف والأحزاب والتيارات، كما طلاباً من طلاب الفقيد الذين تتلمذوا على يديه منذ عشرات السنين...

كيف لا؟ والدكتور سامي مكارم رمز من رموز العلم والفكر العرفاني التوحيدي، وأحد أكبر البحّاثة في الفلسفة، ومحاضر متجول في المنتديات والمراكز الثقافية والاجتماعية في معظم قرى جبل لبنان ووادي التيم وبيروت، فضلاً عن منتدى منزله في عيتات الذي أصبح ملتقى المريدين من النخبة، ومن نخبة النخبة، والتي كان يعتبرها المعلم كمال جنبلاط "كالخميرة في عجين الخبز"...

* مؤرخ وكاتب.

وفوق كل ذلك، كان سامي مكارم أستاذ التصوف والإسلاميات في الجامعة الأميركية في بيروت، وأستاذ الفكر الإسلامي في الجامعة اللبنانية بالإضافة الى إشرافه على برنامج الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية أيضاً... مع العلم أنه خريج جامعة ميشيغان في الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٦٣، حاصلاً منها على درجة الدكتوراه في الفلسفة في دراسات الشرق الأوسط، متخصصاً في الدراسات الإسلامية الباطنية. وقد شغل في الجامعة الأميركية في بيروت (بالإضافة الى وظيفته كأستاذ مساعد في الأدب والفكر الإسلامي) رئاسة دائرة الأدب العربي ولغات الشرق الأدنى مرتين...

وعلى هذا الأساس، يمثل غيابه في هذه الأيام خسارة كبرى وجسيمة، ليس لطائفة الموحدين الدروز فقط، بل للبنان الوطن والأمة الإسلامية جمعاء، كما للإنسانية كلها، حيث عُرف عنه (إضافة الى كونه باحثاً ومفكراً ومحاضراً) أنه لبناني المولد، توحيدي الروح، إنساني الأفق... ولهذا فقد يكون مستحيلاً أن أساء لإنسان، أو حَقَدَ على إنسان، لأنه كان أخاً للجميع، ويحب الجميع، ويكرّس علمهوعمله في سبيل الناس أجمعين، من دون تفرقة وتمييز... باعتبار أن الإنسان هو المحور وهو الهدف والمبتغى في تفكيره وممارسته... وقلّما آذى شخصاً واحداً في هذا الإطار، حتى ولو كان يختلف معه في وجهات النظر، بل كان يحترم الاختلاف شرط أن لا يصل للخلاف...

فكان محاوراً بعقل، ومسالماً بحق، وحكيماً في التعاطي مع الآخرين، لأنه رجل حكمة وسلام وحوار ومحبة بالدرجة الأولى... ونزعة الإقصاء والإلغاء لا مكان لها

في قاموسه العلمي والفكري والتوحيدي؛ وخير دليل على ذلك، ما كان يردده على مسامعنا في أحيان كثيرة تلك الآية الكريمة: ﴿ولو شاء ربّك لجعَلَ الناس أمّةً واحدةً ولا يزالون مختلفين﴾ (سورة هود، آية ١١٨)...

وبالفعل، لقد تجاوز سامي مكارم إيمانه النظري إلى التطبيق العملي الحي؛ إذ كان توحيدياً بامتياز في إيمانه بحرية الآخر والاعتراف بحقوقه كإنسان... إذ أن إلغاء الآخر وتهميشه وانتقاص حقوقه مرفوض شرعاً وعقلاً... ولأن سامي مكارم يحترم الشرع ويقدّس العقل، فكان من الطبيعي أن يكون للآخر المختلف احتراماً كبيراً عنده... وهذا ما يعترف به الكثيرون من طلابه ومريديه ومحاوريه وعارفيه أيضاً...

هذا، ولأنه كان حكيماً في جمعه بين العام والدين (خدمة للإنسان)، فقد جمع في "نعيه" أعلى مؤسستين في هذا الإطار، هما الجامعة الأميركية في بيروت، والمجلس المذهبي لطائفة الموحدين (الدروز)... وهكذا كرّس هذا "الجمع" في حياته ومماته معاً...

وفوق كل ذلك، استطاع الدكتور سامي مكارم أن يكون أكثر من رجل في شخصية واحدة... مجموعة رجال في شخصه الفرد: كان أكاديمياً بامتياز، ومفكراً بامتياز، ومتصوفاً بامتياز، وخطاطاً بامتياز، وفناناً تشكيلياً بامتياز، كما كان شاعراً بامتياز أيضاً... ولهذا نجد أبحاثه ومؤلفاته العلمية والأكاديمية. (مثل "أضواء على مسلك التوحيد" وقد قدّم له كمال جنبلاط -، وكتاب "الحلاج"، وكتاب "الشيخ علي فارس" وكثير غيرها)، كما نجده شاعراً في مجموعة

دواوين (مثل: مرآة على جبل قاف" و"ضوء في مدينة الضباب"، و"قصائد حب على شاطئ مرآة"...) إضافة إلى تراث ضخم في الخط العربي والفن التشكيلي البارز في مئات الآثار التي تركها، والتي تزين بعضها جدران البيوت والقصور في بعض قرى الجبل ومدنه، كما في باقي المناطق اللبنانية، حيث أن معارف سامي مكارم يصعب أن تحدها جغرافيا، أو تفصل بينها حدود...

وبالنظر إلى الصداقة التي كانت تربط بيننا منذ عشرات السنين، فقد التقيته منذ حوالى شهرين، ولم تفارق الابتسامة فمه أبداً كعادته، سألته يومها عن الكتاب الذي ألّفه بالاشتراك مع د. عباس أبو صالح "تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي"، ولماذا لا يُعاد طبعه مرة جديدة بعد نفاذ الطبعة السابقة؟، واعترف هنا أنها المرة الأولى التي يسكت فيها سامي مكارم، ولم يجاوب فوراً كعادته... وعلمت بعد هذا الصمت، كم هو سامي مكارم إنساني فعلاً، وصديق صدوق. ولأول مرة أرى الدمعة تسقط من عينيه عندما قال: لقد آلمني جداً موت أخي وصديقي وزميلي عباس أبو صالح... ومع إيماني بأن الموت حق، لكن موت د. عباس هزّني من الأعماق، وكلما تذكّرته أشعر بأن جزءاً من روحي قد فقد مني... وهل تتصور أنني قادر على إعادة طباعة كتاب، هو جزء من عقل وقلب عباس أبو صالح، ولم يمضِ على غيابه عام واحد بعد؟.

صدّقني لم يعد بوسعي القيام بهذا العمل، ولن أفكر به بعد اليوم...

هذا هو سامي مكارم المتصوف التوحيدي، والمفكر الفيلسوف، بل هذا هو سامي مكارم فيلسوف المتصوّفين الموحدين، ومتصوف الموحدين الفلاسفة...
رحمة الله عليك أيها الصديق المخلص والإنسان الوفيّ...

المستقبل – ٣١ آب ٢٠١٢

من الحياة إلى الحياة

أ.سعيد حمود ملاعب*

قبل أن نتصافح أبادره بالقول: "خذ من العيش ما صفا"، فيجيبني: "ومن العلم ما كفى".

أحبّ الحياة بصفائها وفضائلها وقيمها وتناقضاتها. أحبّ العلم نوراً يضيء طريقنا نحو مجتمع فيه كلّ خير وجمال.

نظر إلى الحياة بعين بصره وبصيرته. أحبّها وعشقها كلمةً ومعنى، لم يفصل بين ظاهرها والباطن. كانت الموسيقى عنده أوتاراً وأنغاماً، عشق الرسم فرشاةً ولوحة، نظم الشعر الذي يلقي ضوءاً على الحياة، على الحقيقة الكامنة في نفوسنا. عاش عالم الرسم والشعر، فإذا الرسم ضرب من الشعر الذي يُرى ولا يُسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى.

عن والده الشيخ نسيب الخطاط النابغة توله بالخط، ريشة وألواناً فترك تراثاً من اللوحات الفنية الرائعة، وتناغمت الكلمات مع الألوان وبدت الأبعاد الفنية عالماً من السحر والجمال.

*كاتب وباحث.

آمن بثنائية الحقائق، فوقف في مسرى رياح الحياة، ينتعش بالهواء رياحاً تدفع أشرعة سفن الأعمار الماخرة بحر الوجود ولا تلقي مراسينا، كما قال ضيفنا الكريم لامارتين الذي حلّ علينا ضيفاً في منتصف القرن التاسع عشر. لم يعترض الدكتور سامي على هبوب الرياح الهوجاء تدمر أشرعة حيواتنا فهي الوجه الآخر للنسائم التي تعطر مسرّات حياتنا أو تجفف الدموع من عيوننا الحزينة. إنها ثنائية الحياة كنّا وسنبقى عبيدها وأسراها.

كان مؤمناً بالتنوع، إنه الصراع الإيجابي في مسيرة الحياة فرحاً وحزناً، ضحكةً ودمعة. من غصون الوردة نفسها أكمام تزيّن صدر عروس، تستقبل الحياة بسعادة وأمل. ومن الأكمام الباقية من الوردة تشكل إكليلُ لوعةٍ وحزن في وداع فقيد عزيز. في البدء كان الكلمة، ومنه كانت الكلمات فعشق الدكتور سامي الأبجدية وغاص في أبعادها الرمزية. أحبها رسالات سماوية، ثورة في وجه سلطان جائر، رسالةً إلى صديق أو حبيب، إبتهالات وصلوات وتأملات ووجد لعظمة المبدِع والمبدَع. أحبّ الحروف والكلمات نشيداً تتناغم ألحانه ومعانيه فوق الرؤوس الجبال أو الجبال الرؤوس. هي الحروف تعلي مداميك النهضة الإنسانية فكراً وفناً وعلماً وأدباً وثقافة.

إن خاض الدكتور سامي غمار عالم المعرفة والكتب ترتسم فوق شفتيه إبتسامات وكلمات تلقي الضوء على "نشيد المولى" والكتابات المسمارية في رأس شمرا وإيبلا. إن استفاض يحدثنا عن الأسفار السنسكريتية وبوذا وكونفوشيوس ولاوتسي وكتاب الموتى عند أهل التيبت. ولا ينسى التأكيد على حضارة أم الدنيا مصر فيتعمق في تفسير عظمة أهراماتها ومعابدها وتراثها، ثم يعرّج ملقياً الأضواء على حضارة اليونان

فيثاغورس، أفلاطون، سقراط وأرسطو. آفاقه وأبعاده رسم وشعر وأدب وفلسفة وناسوت ولاهوت. إن نظرت إلى مكتبته فهي أمهات الأسفار والكتب والمخطوطات. القرآن الكريم إلى جانب الآناجيل المقدسة. على الرفوف تسمع همسات العباقرة. جمهورية أفلاطون، نهج البلاغة، طواسين الحلاّج، نبؤات نوسترادموس، ترجمات سلفستر دوساسي، مؤلفات جيرار دونيرفال ودائرة المعارف البريطانية التي أسهم في كتابة فصول منها. أحب التراث والآثار والتحف، فمنزله متحف يضم آلاف القطع الأثرية الرائعة. وكان اللافت من هذه التحف خزانة قديمة ضمت في حناياها الكتب التوحيدية والتاريخية النادرة، كتاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تاريخ إبن ساباط، شروحات الأمير السيد التنوخي، مخطوطات الشيخ الشهيد زين الدين عبد الغفّار تقي الدين، إلى جانب الشيخ محمد الأشرفاني والشيخ الفاضل (محمد أبو هلال)، وتشدّ نظرك مؤلفات وأسفار لإبن عربي والفارابي وإبن رشد وجبران، تصطف إلى جانب كتابات إخوان الصفا والمعتزلة والنفّري وذو النون المصري والتستري وفريد الدين العطار ورابعة العدوية والشيخ علي فارس، ديوان إبن هاني الأندلسي (متنبي الغرب)، أضواء على مسلك التوحيد، مرآة على جبل قاف، عاشقات الله. عشق سامي مكارم عاشقات الله ومحبات الحياة. المرأة في فكره ومؤلفاته هي نصف المجتمع ومساواتها بالرجل واجب ديني وإنساني. القداسة عنده لمايا والدة فيثاغورس ولنفرتيتي التيبيتية ملهمة أخناتون، ولمريم والدة السيد المسيح، ولآمنة والدة الرسول الكريم، ولفاطمة إبنة الحسب والنسب. أما الست سارة الفاطمية الفكر والعمل فكانت مثالاً في القدوة والقيادة بعد إن استلهمت فكر أفلاطون الذي قال: "المرأة قادرة على أن تصبح من طبقة الملوك الفلاسفة، وهذه الطبقة عليها أن تحكم الدولة لأن أفرادها رجالاً ونساءاً استطاعوا أن يحققوا بأنفسهم الفضائل كفضيلة العقل

وهي الحكمة وفضيلة القوة الغضبية التي هي الشجاعة وفضيلة القوة الشهوية التي هي العفّة، وبذلك تتحقق فضيلة العدالة". المرأة عنده إيزيس وأوزيريس، ينغ ويانغ ذو معه وذومصه، العقل والنفس. فأحب نصفه الآخر. المرأة عنده ملهمة فهي نعمة وهي ليلى الشعراء، هي سحر ورند.

استحوذ الشعر على فكره حيزاً كبيراً وهو الذي أتقن نظمه قبل أن يبلغ العشرين. لم يكتفِ بشعر الضاد بل غاص في أعماق شعر شكسبير ودانتي ولامارتين وبودلير وألدو أمرسون وطاغور والخيام وغيرهم الكثير. إن أبدى إعجاباً بشعراء العربية استلهم أشعار الشاعرين التنوخيين إبي العلاء المعري (رهين المحبسين) والمتنبي الذي استبدّ به الشوق والحنين إلى أهله فزارهم سنة (رهين المحبسين) والمتنبي الذي استبدّ به الشوق والحنين إلى أهله فزارهم سنة ٩٦٠م في قريتهم "البيري" الواقعة بين عاليه وسوق الغرب ونظم قصائد المدح لهم ولسيدهم أحمد الطائي السموقي. لم ينسَ الدكتور إبداعات الشعراء الأفذاذ كشوقي وحافظ ابراهيم والأخطل الصغير وسعيد عقل وأمين تقي الدين وأمين ناصر الدين وأدونيس. ولفته شعر المجددين الأوائل كنازك الملائكة وفدوى طوقان ولميعة عباس عمارة وأنسي الحاج وفؤاد الخشن وسميح القاسم، ولم ينسَ زميله ورفيق دربه الشاعر الشهيد خليل حاوي الذي عبر الجسر في الصبح خفيفاً إلى الضفة الثانية من الحياة.

إن كتب عن المؤرخين فلن ينسى فيلون الإسكندري وهيرودوت وإبن خلدون وإبن الأثير والمقريزي. وهل ينسى أصدقاءه المؤرخين المعاصرين كالزملاء عباس أبو صالح وكمال الصليبي وعادل اسماعيل وفواز الطرابلسي والأب الدكتور أنطوان ضو وحافظ أبو مصلح والدكتورة سعاد الحكيم ومتعدد المواهب الأب الدكتور يوسف مونس والمطران جورج خضر والسيد محمد حسين فضل الله وغيرهم؟

إن ذكر أصدقاء الدراسة والتدريس والأمسيات الأدبية والفكرية والشعرية ومجالس الإنس تسمعه يحدثك عن (مع حفظ الألقاب) قسطنطين زريق وأنيس فريحة ونقولا زيادة، ولا ينسى بشير العريضي وكميل مبارك وسامي قائد بيه وكامل ريدان، وسيتذكر من جمعه الفكر بهم كأنطوان مسرّه ونديم نعيمة ونور سلمان وقيس فرّو (فلسطين). وفي مجالسه تشمّ أريج وعبق الإنس والفرح وهو يستعيد الذكريات الحلوة مع وجيه نحله ووهيب بتديني وعارف الريس وزارع الفكر والورد سامي الرفاعي ورياض شرارة وحكمت وهبي. لا يعرف القلق والكآبة. إن سألته: "لماذا لا تفارق الإبتسامة المشرقة وجهك؟" أجابك (بالعامية): "الحياة حلوة بس نفهمها، وحياتنا دقائق وثوانٍ فلنستغل هذه الفترة القصيرة للحب علّه يصبح ديننا وإيماننا". تسألني لماذا أنا دائم الإبتسامة!! لأنني أحيا مع نخبة من الزملاء والأصدقاء والأخوة والمحبيين ومن مختلف الطوائف والأديان والمناطق. أنا موطني كل الدنى لأنني عرفت الوطن فنسيت الوطن، فوطني وطن الروح، والجسد إلى التراب. لم أرَ خلاصاً إلا بالرضى والتسليم لقد رضيت وسلمت باستشهاد إبن أخي سعيد (نبيل). سأبقى حتى النفس الأخير محباً متسامحاً يملأ الفرح قلبي وأنا أسمع أفكار فيكتور الكك ومشرقية شوقي خيرالله وخواطر خالد زهر وأحس بجدية محمد السمّاك وأريحية عصام خليفة وأنطوان سيف وقفشات أنيس أبو رافع الأدبية وأخوّة سليم خير الدين وصداقة عصام نعمان وطرائف إيلي سالم وتصوف صلاح استيتية تلميذِ مكتشفِ شطحات الحلاج المستشرق لويس ماسينيون. سأبقى دائم الإبتسامة لأنني أحيا في سعادة داخلية لو علم بها الملوك ورجال السياسة والمتاجرون بالدين والدنيا لقاتلوني وقاتلوكم عليها بحد السيف.

كان الدكتور متصالحاً مع ذاته. وكان يرى أن الصلح مع الذات الطريق الأسهل لمعرفة النفس، ومن عرف نفسه عرف ربه. الصلح مع الذات صلح مع جميع الكائنات، وهو الطريق الحتمي لمن يرون السعادة في الدنيا وفي عالم الآخرة. وكان يشفق على من يعتبر نفسه كائناً منزهاً أو ملاكاً معصوماً، فالعصمة للأنبياء. على إحدى وريقاته قرأت: "عجبت لمن يشتري العبيد بماله ولا يستميل الأحرار بحسن مقاله". كانت الشفقة تملأ قلبه عندما يسمع من يؤمن بأن نهاية أعمارنا تنتهي على حافة القبر. ختم إحدى رسائله: "لا تليق الحياة إلا للذين فهموا الموت ولادة، والولادة حياة، والحياة رسالة".

ويبقى المجتمع الفاضل هاجسه، ولا يتحقق هذا المجتمع عن طريق الديمقراطية. ولن أتردد في القول: "أتوق إلى المجتمع العادل، ما هذه الديمقراطية الزائفة التي جرّعت سقراط السمّ؟ إن كان هناك من ديمقراطية فلن تتحقق إلا بتكامل الوعي والحرّية وتكافؤ الفرص". نعم أنا مع المستبد العادل ليستدرك بالقول: "العادل لا يمكن أن يكون مستبداً".

قبل أسبوع من انتقاله من الحياة إلى الحياة قال لي: "لقد تعبت، أحب أن أنهي السيرة الذاتية، تعب جسدي الترابي، ترى هل اشتاقت روحي للعودة إلى عالمها؟!! يبقى هاجسي حتى لحظة المفارقة أن أرى وطناً لا يرقص على حافة الهاوية. قبل أن أعود إلى عالم الروح أشتاق إلى من يقترب مني ويهمس في أذني..". إطمئن لقد وصل إلى سدّة الحكم المستبد العادل. الألسن لا تنطق إلا بالصدق، رجال الدين لا يتدخلون بالشؤون السياسية بعد أن فصلوا الدين عن الدولة.

ومن ظنوا أنفسهم أصحاب وكالات حصرية من السماء، وظنوا الدين والدولة في خدمة أغراضهم، لقد زج بهم في السجون والمعتقلات ولم يعودوا ملائكة القضاء والقدر.

قبل أن أودّعه بلحظات سقط نظري على لوحةٍ كانت الرسم بالكلمات:

خَلقتَ الجمالَ لنا فتنةً وقلتَ لنا يا عِبادُ اتّقوه
فأنت جميلٌ تُحبُّ الجمال فكيف عبادُك لم يعشقوه؟!

سامي مكارم رجل الرسالة

أ.عفيف خضر*

لم يكن لسامي مكارم الكثير من الخيارات لنهجه في الحياة، فوالده الشيخ نسيب، شيخ الخطاطين العرب، رسم له ولشقيقه سعيد الطريق إلى خلافته في الخط وفي المشيخة الدينية. وقد برع سامي في الحالين، فكانت له أعمال فنية رائعة في الخط والزخرفة وأصبح رائداً لدارسي الدين في نوع حديث من المشيخة المتنورة.

عرفته في الخمسينيات طالباً متفوقاً في كلية الآداب في "الجامعة الأميركية"، ينتظر الوقت ليتخصص في دراسة المذاهب الباطنية لينال الدكتوراه من "جامعة ميشيغان" ويحصل على تنويه خاص من الآغا خان على بحوثه عن الإسماعيلية التي تعتبر من المراجع المهمة لدراسة فكر تلك الجماعة.

أما في البحوث الخاصة بالدروز فقد بدأ إنتاجه بكتاب "أضواء على مسلك التوحيد" الذي كتبه بتكليف من الشيخ محمد أبو شقرا، شيخ العقل، بنصيحة من المفكر كمال جنبلاط الذي كتب مقدمة للكتاب تعتبر من أروع ما كتبه عن الفكر التوحيدي.

الكتاب كان رداً على كتاب السفير عبد الله النجار "مذهب الدروز والتوحيد" الذي كان باكورة التأليف عن عقائد الدروز، وقد أثار موجة عارمة من احتجاج رجال الدين، لا لما فيه من أفكار، بل لكونه نزع السرية المطلقة عن المذهب

* رجل اعمال وناشط اجتماعي.

والتي استمرت لقرون متعددة مدعاة لسوء فهم العالم للدروز. وانتشار القصص المغلوطة عنهم حتى من جانب مؤرخين عاشوا في قرى مشتركة من دون اهتمام أحد بصحيح المعلومات إمعاناً في السرية. وكانت نصيحة كمال جنبلاط أن يرد على المؤلف بآخر مثله لا بالمعارضة غير المسؤولة. وبدأ الكتابة بنفسه ووضع مقدمة كتاب سامي.

وكم كان كمال جنبلاط مصيباً إذ يحضرني أن أقول لشيخ الباحثين العرب الدكتور عبد الرحمن بدوي: "إن السر يزداد غنى كلما كثر الحديث عنه". والتراث الفكري لأي جماعة لا يمكن أن يبقى متجمداً ولا تطور حقيقياً إلا إذا استمرت الأفكار الجديدة في الصدور عن كل من له شأن دون الاكتفاء بما كتب سابقاً. فيحب أن يضيف الناس إلى التراث من روحهم قبل أن يصبح بلا روح.

كان سامي مكارم يحمل في شخصيته ومساره معاناة أهل الفكر وتناقضاتهم، فهو ارسطوطالي النزعة رشدي المنهج. يتبع منهج المعلم الأول في بحوثه كما برز في ما كتبه في الفكر التوحيدي الذي يعد لأفضل منذ عصر السيد عبد الله التنوخي والشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين. ثم يكتب عن المتصوفات المسلمات بغزارة، مما دعى زميل دراسته الدكتور نديم نعيمة، في كلمته عند تكريم سامي لدى "الحركة الثقافية" في انطلياس، إلى القول ان سامي يكتب عن نفسه من خلالهن.

وليس لي أن أعدد نشاطات سامي فحياته مترفة في الغنى الفكري والاجتماعي وهو سيخلد كرائد في تاريخ دعوة التوحيد وفي مسار التطور الفكري والاجتماعي للدروز واللبنانيين عموماً.

السفير ٢٠١٢/٨/٢٨

سامي مكارم بمؤانسته وفكره وألوانه وشغفه
مقيماً بصمت جميل
خلف الموت العابر

أ.يقظان التقي*

سامي مكارم شخصية متعددة على المستويات كافة الأكاديمية كأستاذ للدراسات الإعلامية في الجامعة الأميركية ولمادة التصوف وشيخ تقوى ديني عارف توحيدي شفيف ومتواضع وشاعر ينظم لفيفاً من القصائد إلى كونه رساماً حروفياً محدثاً وملوناً في الخط العربي الكلاسيكي.

عرفته مطلع التسعينات محاضراً في الدراسات الإسلامية ومنخرطاً في شرح رسالة الإسلام ببعدها الصوفي والوسطي الكبير والإنساني والحضاري ودعاني إلى مجموعة مختارة في التسعينات من معارضه التشكيلية في نواحي العاصمة بيروت وغالبرياتها العاملة منتصف التسعينات.

رحل سامي مكارم في الثمانينات من عمره، وهو على كرسيه ولم يزل شاباً ومنخرطاً في حياة كاملة متعددة وعلى تنوعها وغناها متصالحاً تماماً مع نفسه ومع قدرة على التركيز على الأمور الطيبة وعلى العقل والحكمة. ما عرفت شخصاً متصالحاً مع ذاته وبتوددة كما سامي مكارم.

* صحافي.

شخصية لبنانية، صورة عن لبنان المؤانسة على بصيرة وغنائية جميلة تتسع داره لحفلات موسيقية طربية أقامها في منزله الحجري الجميل في بلدته عيتات ولعشق موسيقي وطربي يعادل أماسيه الجامعية.

عاش سامي مكارم حياة أرستقراطية بالمعنى النبيل للكلمة: علم وثقافة وأكاديمية عالية وإيمان توحيدي ويجمع بين المذاهب والأديان وشغف بالموسيقى والشعر وفنون الرسم.

وعلى انفتاحه الدائم على الكلاسيكي القديم وأركان الزمن الجميل كافة وبنظرات شبابية متجددة وبحيوية استثنائية.

خسارة رحيل سامي مكارم. لا داعي للرحيل مع شخصية متصالحة مع ذاتها ومقيمة بشغف نبيل جداً على حدود المطلق الذي شكل عنصراً رئيسياً في خلواته وسعادته الإيمانية الأخيرة محاضراً في الشباب عن معنى الحياة الجميلة بانخراطه في عمق الأشياء وجوهرها وليس الحياة السطحية والقشور التلفة.

لم يكن سامي مكارم شخصية نجومية، ولكن لم يكن شخصية برانية أو ثانوية. مبدعاً على طريقته ويحفر صوته "الإغريقي" عميقاً في ذاكرتي وهو يسترسل في منهجه الدراسي المتمكن ولاعتدال الفصول على مستوياتها كافة وتياراتها كافة السياسية والاجتماعية والفكرية.

فصوته يأتي من البعيد، من زمن يعطي قيمة كبيرة لوزن الأشياء إلى القصائد والحضارات وبساطة الحياة على شاعريتها وغناها. يذكرني بزمن الشخصيات التاريخية القديمة وتنخرط معه بالمدارس الفكرية واللاهوتية والفنية وبالواقع على الأرض تتويجاً لحياة فردية جميلة وشغف جميل والتزام شفيف وبقوة بجوهر الأشياء. بالتأكيد لم يكن سامي مكارم مناضلاً ثورياً مجدداً كوظيفة تجديدية سياسية واجتماعية أو فكرية. ولكن كان الراحل مساهماً على طريقته وخلف الأضواء واحداً من «الجميلين جداً» والودودين جداً في طائفته والحاملين أفقاً يتسع لمدارك أوسع فكرية وحواضر الجماعات الإنسانية الكبرى، ونزعاته الوجودية المتغايرة.

ما كان مغامراً بعيداً، اكتفى بمقدماته وباجتهادات عابرة وغير صادمة جدلياً متنزهاً عن كشكول العلاقات العامة وعن الأضواء ولا محركات اجتماعية داخل طائفته. على نحو مقدمته لكتاب عن الثورة الاجتماعية والدينية في مواجهة الإقطاع في لبنان التي قادها الأمير الشهير عبد الله التنوخي وكان سبباً بهجرته إلى بلاد الشام والدور الذي شغله كمرجع ديني للطوائف كافة من الشام ما سبق عودته للبنان. كتاب قدم له الدكتور رضوان السيد، وهو بحث جميل في إرهاصات الثورة الاجتماعية من أجل الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية في مقدمات أولية لم تخرج من عزلتها السياسية كثيراً على مستوى الجماعة.

رحل سامي مكارم في ثمانينه المفاجئة، وهو المقيم بصمت كثير خلف حروفياته وخطوطه وألوانه وشبه ربيع دائم. أصلاً هو شخصية من فصل واحد بنظراته الطيبة وصوته الدافئ وهو المقيم على مراجع بحثية مهمة وحساسة. لا أدري هل تمكن الموت منه نهائياً أم هو الذي تمكن من لحظة الموت العابر.

عاشق الحرف والوزن واللون*

أ.سليمان بختي*

ترك الدكتور سامي مكارم أوراقه وديوانه الشعري في مكانه ورحل.
وترك أيضاً كل ما كان يحضره للفصل المقبل لطلابه في الجامعة الأميركية من عيون الأدب العربي الصوفي الاسلامي. بصمت وهدوء وكمن يفتح الباب ويدخل من دار إلى دار.
قبل أسبوع ألقى سامي مكارم محاضرة عن الفكر الصوفي "وأثره في العصر الحديث" وكان حاضراً دائماً بكل لطفه وابتسامته لأي توضيح او التباس أو تصويب.
وقبل شهر أو أكثر التقينا في منزل الشاعرة هدى النعماني وردد تلك العبارة الصوفية لجلال الدين الروحي "فان الله يهب جناحين لمن تخلى عن حصان الجسد".
أحب سامي مكارم الحرف العربي فشكّله لوناً مثلما شكّله بحثاً وكتابة. ولبث دؤوباً على التعميق في الأدب العربي والتصوف والفكر والفن الاسلامي والشعر.

وكان يشجع كل ذي موهبة وخصوصاً من الشباب. وأذكر في العام ٢٠٠٩ حين كتب مقدمة لشاعرة شابة اسمها جنان زيتوني لمجموعتها الأولى "نده الى الخروج". وكتب: "وأنت أيها الانسان، أرفض كل هذه العبودات، أتقن مسرحة الرفض، كن حراً، لقد وجدت الحرية لتحقق الانسانية فيك، لا لتحقق العبودية والعبودة".
كان يبحث سامي مكارم عن لقاء مرأوي بين المعنى الحق والكلمة والمظهر. بين الحقيقة وعبارة الحقيقة، بين المعنى وحروف الكلمة.

---

*كلمة له في جريدة "النهار" ٢٤ آب ٢٠١٢.
*كاتب.

مشى على خطى والده الشيخ نسيب مكارم في حفظ روائع الخط العربي، ولكنه أخذ اللون إلى جمالية انطباعية بلا آفاق.

سنفتقد الدكتور سامي مكارم في الحراك الثقافي وفي الندوات واللقاءات والمحاضرات، كما سنفتقد جهوده الاكاديمية والابداعية. وأيضاً سنفتقد تلك الاطلالة الطيبة المحمولة والمغسولة بدفء أهل القرى. سامي مكارم كان يتأمل في نقطة كالمرآة جذبته اليها. نقطة في غمامة. غمامة في نور. نور من قبس الاله. اله من غمر وفيض أرواح. نقطة هي أول العمر وآخره. البداية والنهاية.
وما الرحلة سوى ارتقاء المعارج.

لم يغادر الميدانَ حتَّى الرَّمق الأخير*

الشيخ غسان الحلبي*

سألتُ د. سامي مكارم ذات يوم هذا السؤال: متَّى اتَّصلتَ بالعِلم؟ فأجاب: كان والدي، الّذي أحبُّه جدًّا، الشَّيخ نسيب مكارم شخصيَّةً مرموقةً في العالم الإسلامي نظرًا لتميُّزه الفائق في فنّ الخطّ العربي وأسرار كتابته. مُنح لقبُ "خطّاط الملوك"، لكنَّه استقرَّ لاحقًا على توقيع أعماله بصفة "الفقير لله تعالى". بهذه الرُّوح، قال لي: "التَّوحيدُ أجلّ ما في الحياة". كنتُ صبيًّا، فطلب من أحد الشيوخ من أصحاب التّقوى والعِلم أن يحضرَ إلى بيتنا في مواعيد ثابتة ليعلِّمني الكتابَ ولطائف معانيه. وأذكر أنَّ والدي كان يدعو إلى إحياء سهرةٍ دينيَّة بالذِّكر بمناسبة ذكرى ولادتي ليرسِّخَ في ذِهني أنَّ الفرحَ الحقيقيَّ بالرُّوح يكون، لا بالصُّورة والمظهر.

شبَّ سامي مكارم في هذا الكنف، وبات مهيّئًا للانتقال إلى الخارج طلبًا للعِلم. سمعتُ منه مرارًا حكاية ما أوصاه به والدُه وهو على أهبة السَّفر: "يا ولدي، منحني الله تعالى من كرمه موهبة سخَّرتُها لأنوار كلماته، وأنتَ احفظْ هذه الحكمة: إن وهبكَ العِلمَ فسخِّره في ذِكره". وها نحن اليوم هنا، في لحظة وداعه، تشهدُ له الجموعُ أنَّه كان وفيًّا لوصيَّة والده كأنَّه عاش حياتَه دون أن تبرحَ تلك الوصيَّةُ خاطرةُ وقلبه وكيانه.

* مستشار مشيخة العقل، الكلمة التي ألقيت في المأتم ٢٠١٢/٧/٢١.

ساحَ د. مكارم في الدراسات الإسلاميَّة على قاعدة أكاديميَّة راقية. ولمَّا اندلعت أزمة نشر كتاب مثيرًا مسألة المدى الّذي يمكن أن يذهب فيه المرء في فهمٍ شخصيّ للتأويل، اتَّفقت القيادات السياسيَّة والروحيَّة آنذاك على نقطة تقاطع منهجيّ في مثل حلٍّ مقترَح، تلك النقطة كانت د. مكارم الَّذي كتب "أضواء ..." بتزكيةٍ موقَّعةٍ من كمال بك جنبلاط وسماحة الشيخ محمّد أبو شقرا. تلك تجربة تطوَّرت، ولم تثمر فقط كتابة دراسات علميَّة رائدة، بل وفتحت الباب أمام إنشاء مؤسَّسات لتكون صرحًا تربويًّا ونهضويّا تمكّنُ من حضور الفكر في الحياة المعاصرة، بدءًا من "العرفان" إلى "المجلس الدرزي للبحوث والإنماء" وصولا إلى "مؤسّسة التراث".

لكنَّ آفاقا فسيحةً ضاقت بها المؤسَّسات واتَّسع بها فكرُ الرَّجل. صار في ذاته أشبه بمعهدٍ علميّ متنقِّل. وكلُّنا يعلمُ كم عبَر هذا الصَّوتُ فوق المنابر في القرى والمدارس والمنتديات بلا كللٍ ولا ملل ولا غايات نفعيَّة حاثّا على الأخلاق والمعرفة والتمسُّك بأهداب الفضيلة، بحرصٍ بالغ على التواصل مع الشّيوخ الأفاضل، وشغفٍ دائم بإيصالِ الرُّوح الإنسانيَّةِ إلى معنى فضائلها الحقيقيَّة، وتشبُّثٍ ثقافيٍّ راسخ بضرورة التمسُّك بنهج المعرفة والمحبَّة بابًا إلى قلوب النّاس وعقولها، وخاصَّة الجيل الشابّ، ليتمكَّنوا في نفوسهم من اكتساب مناعةٍ خلُقيَّة وروحيَّة تحميهم من الانزلاق في مهاوي الأخطار التي يسبِّبها لنا الزمنُ الحديثُ في كثير من ظواهره وغواياته.

وظلَّ د. مكارم ثابتًا بالطبع في عمله الأكاديمي الّذي كرَّسه حتى اللحظات الأخيرة من عمره أستاذًا جامعيًّا باحثًا في الفكر والتاريخ والتصوُّف والدّراسات القرآنيَّة والعرفان، وعدد كبير من الإسهامات الرّصينة التي قدّمها في المؤتمرات العلميَّة والندوات والمناسبات الثقافيَّة العامَّة.

لدينا الآن إرثُ الرَّجُل. وهو إرثٌ توحيديٌّ إسلاميٌّ معرفيٌّ فكريٌّ عرفانيٌّ أدبيٌّ إنسانيٌّ يرقى إلى المستوى الحضاريّ الرَّفيع، في حقبةٍ زمنيَّةٍ يغلبُ فيها التعصُّبُ والتطرُّفُ والتهوُّرُ والانزلاقُ الغريزيُّ إلى نزقِ الغلبَةِ والأثَرة القائمة على القهر والظُّلم. وهو بهذا البُعد الرّاقي، إرثٌ وطنيٌّ لاسيّما التاريخيّ منه لأنَّه كُتِب بموضوعيَّةٍ ترى الذّات والآخر وتفهمُهما معًا.

كتب سامي مكارم ما استشعره خدمةً تُسهمُ في إضاءةِ ما هو جميلٌ في الإنسان. تفهَّم بصبرٍ جميل معاناةَ الاغتراب الرُّوحي في العصر الحديث، وغلبت عليه في إسهامه المعرفيّ في تعليم الألفة مكان الاغتراب طباعُ التَّسامح والمحبَّة والنُّزوع الوجدانيّ نحو المشاركةِ والصّداقةِ والتفهُّم، من دون أن يغنيه ذلك عن تعميق رؤيته، والغوصِ في معاني الكنز العرفاني في أكثر ينابيع التراث أصالةً ودقَّة.

لم يغادر الميدانَ سامي مكارم حتَّى الرَّمق الأخير. وكان أكثر ما يكون مغتبطًا حين يكون في عين عطائه ممَّا أعطاه الله سبحانه وتعالى، واستشرفهُ من الأصول. بقيَ ثابتًا في ما أوصاهُ والدُه به. كأنّي بهما يردِّدان أمام ربٍّ كريم ﴿ربَّنا آمنّا فاغفر لنا وارْحمنا وأنت خير الراحمين﴾ (المؤمنون ١٠٩).

الغائب الحاضر

الشيخ سامي أبي المنى*

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيّتها النّفسُ المطمئنةُ ٱرجِعي إلى ربّك راضيةً مرضية فٱدخلي في عبادي وٱدخلي جنّتي﴾صدق الله العظيم.

قاسيةٌ هي اللحظة التي تبلّغنا فيها خبرَ الرحيل، وجليلٌ هو الخَطبُ الذي حلَّ بطائفة الموحدين الدروز، بغياب عَلَمٍ من أعلامها البارزين الدكتور سامي نسيب مكارم، ولكن حُكمَ القضاءِ والقدرِ لا مردَّ له، فليس في البالِ اعتراضٌ أو امتعاض، ولا في الحَدَثِ كلمةٌ تُقالُ سوى الرضى والتسليم، لأن الموتَ حقٌّ، ولأنَّ في الموت ولادةٌ جديدةٌ تستحقُّ الفرح لمن عرفوا الحقّ ووقفوا عند معرفةِ النفسِ وخالقها، فارتقَوا وعشقوا المسافرة في معاني العلمِ والمعرفة والحكمة إلى أعلى عليّين.

منذ انطلاقته الأولى طالباً فمدرّساً إلى التماع نجمه متخصّصاً في الدراسات الشرق أوسطية وفي الفكر الباطني الإسلامي، برز الدكتور سامي مكارم كباحثٍ ومفكّرٍ وعالِمٍ، تعمّق في تلك الدراسات وفي المراجع والمصادر الدينية، ممسكاً بيده خيطَ النورِ والعِرفان فلم يُضِعْه مرّةً ولم يَضَعْه طرفة عين، بل غاص في التوحيد وكتب في مسلكه، وأنشد في صفاءِ عيشه ابتهالاتٍ واعترافاتٍ وخواطرَ، وبذرَ، في ما كتبَ من كتب وألقى من محاضراتٍ، بذارَ المعرفة التوحيدية لمن أحبَّ الاعتناءَ بها واستثمارَ جَنيها، فكان واضحاً في مقاصده، عميقاً في استشرافاته، دقيقاً في تعبيره،

* أمين عام مؤسسة العرفان التوحيدية، ورئيس اللجنة الثقافية في المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز، كلمة تأبينية في وداع المرحوم الدكتور سامي مكارم ــ عيتات ٢٠١٢/٨/٢١.

أميناً في البناء على إرث السلف الصالح والشيوخ الثقات، مُفيداً، ومعترفاً بالعجز والتقصير عن الكمال، بتواضعٍ وصمتٍ وعزمٍ دائمٍ على التقدُّم والارتقاء في معارج التوبةِ والحِكمةِ والتوحيدِ والعِرفان.

قد أخذ د. سامي مكارم من مَعينِ شيوخه غذاءً وماءً توحيديّاً لم ينكره، يوماً، بل ازداد به تعلُّقاً وتشوّقاً وتحقُّقاً، تأثّر بالحلاج فبحث في تجلّياته واختباراته، وبالشيخ علي فارس فكتب سيرته وحفظ شعره ومشوقاته، وربما كانت كلمته الأخيرة المسجّلة لدينا في وداع الراحل الكبير الشيخ ابو محمد جواد ولي الدين، كلمة وداعٍ له، اعترف فيها بعمق تأثّره بسلك الشيخ وروحيّته التوحيديةِ العالية، وقد كان سيِّدُنا الشيخ الجليل يُثني عليه ويُشجعنا على الاستفادة من علم د. سامي وروحانيته العالية في المحاضرات والندوات التثقيفية لشبابنا الموحّد.

ولم يتوقّف الدكتور المفكّر عن البحث والإبداع والعطاء، فكانت كتاباتُه المعمّقة في معاني "مسلك التوحيد" وتاريخِه، وفي "العرفان" المتجلّي في هذا المسلك، وفي "التقيّة في الإسلام"، كنزاً ومرجعاً لطالبي المعرفة والثقافة الصحيحةِ المأخوذةِ من أساسها وأصلها، وكانت أشعارُه وخواطرُه آياتٍ في جمال التعبير وشفافية القلب، ومحاولةً للتعبير الروحي عن عشقِه الجمّ للمحبوب الحقّ، وهو مَن كتب أيضاً عن "عاشقاتِ الله"، بدءاً من رابعة العدويّة، وهو مَن امتهن وعاش حياةَ الفكر والروح،

لا حياةَ الجسد والعَرَضِ الفاني، فاستحقّ من رفاق دربه وطلّابه لقبَ الشيخ والمعلّم والقدوة، وحفر اسمَه حفراً في قلوب وعقول عارفيه وقارئيه ومُحبّيه، كواحدٍ من أُولئك الأعلام النوادر الذين برعوا في نبش التراث الروحي والإفادةِ من كنوزه، كما في مجال الفنّ وجماليّةِ الخطّ العربي الذي ورث أُسسَه وروعتّه عن المرحوم والده وأحد أكبر أعمدتِه، الشيخ نسيب مكارم، فأضافَ عليه رونقاً ومسحةً عرفانية، وكذلك في مجال الإنسانيّات والحوار الذي تحدّث بعُمقٍ فيه، مُنسجماً مع ما في داخله من محبّةٍ وسلامٍ وسكونٍ وإلفة.

لقد غاب الدكتور سامي مكارم، وما زال حاضراً، كما حضر فينا منذ نشأنا على كتبه وعلمه، وتزوّدنا من فكره وكلامِه، ونحن نتربّى في كنف شيوخِنا الثِّقات الأفاضل، فنترسّخ في عقيدتِنا التوحيدية وإسلامِنا السّمحِ ومحبّتِنا الصافية للناس، علماً وعملاً، معرفةً ومسلكاً، وسيبقى أبناءُ التوحيد يتذكّرون، في حاضرهم ومستقبلِهم، ذلك الوجهَ البريءَ المشِعَّ علماً واندفاعاً، وتلك الحالةَ الاستثنائيةَ التي لا تتكرّرُ دائماً، وهو مَن رُفِع بعلمِه وإيمانِه، كما قال تعالى:"...يرفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ، واللهُ بما تعملون خبير". لقد أُوتيتَ العلمَ والإيمانَ أيّها الحبيبُ الراحل، وعملت جهدَكَ لتحقيق إيمانِكَ وعلمِكَ، فكان إيمانُك راسخاً وعلمُكَ نافعاً وعملُك طيّباً، من أجل تحقيق إنسانيّةٍ جميلةٍ تستحقُّ الجهادَ، لذاك استحقّيتَ منّا ومن كبارِ القومِ وعمومِ النّاسِ أخلصَ التنويهِ والتقديرِ وشهاداتِ التميُّز والوفاء، طالبينَ لروحِك الرحمة، راجينَ لك الفوزَ وسُكنى الجِنان.

باسم المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز واللجنة الثقافية نتقدم من عائلة الفقيد العزيز بأحّر التعازي وأصدق الدعاء، ومن المشيعين الكرام والمتصّلين من أهلنا وأصدقائنا من أكثر من بلدٍ ومكان بالشكر والامتنان. وعلى قاعدة الدين الأساسية بما تقتضيه من اتصالٍ وإستلام للأمانة، وما حققه الراحل الكريم من ذلك، فإننا نُقري روحه السلام، طالبين له الرحمة والفوز وسكنى الجنان. وإنَّا لله وإنَّ اليه راجعون.

سامٍ كما النجم

سامٍ كما النجمُ، مرفوعٌ كما العَلَمُ ماضٍ كما السيفُ، مَبريٌّ كما القَلَمُ

راقٍ كما الحبُّ، شفّافٌ على خَفَرٍ حُرٌّ كما الطَّيرُ، رقراقٌ كما النَّغَمُ

يا ناثرَ العلمِ، مأخوذاً بحكمتِه مُسافراً في المعاني، دونَك القِمَمُ

من وحي إسلامِكَ التوحيدُ مُكتمِلٌ ومن مسيحِ الهُدى في هَديِكَ القِيَمُ

مهَّدتَ درباً لمن قد جاء مُلتمِساً وجهَ الحقيقةِ، معراجاً لِمَن قَدِموا

إليكَ ترنو قلوبٌ كنتَ تُشبعُها ممّا تُزكيّه من علمٍ وتغتنمُ

وأنت ترنو بشوقٍ نحو مَن وَصَفُوا لمّا صَفَوا ومضَوا في النورِ والتحموا

حَججتَ نَحوهُمُ، ترجو محبّتَهم وما مَللتَ ولا زلَّت بك القَدَمُ

لبستَ ثوباً بديعاً من طهارتهم يُجلِّلُ الروحَ، لا زَيغٌ ولا عدَمُ

وخُضتَ في مسلكِ التوحيدِ، تَسبرُهُ علماً وبحثاً، بشوقٍ قد حكاه فَمُ

وغُصْتَ في لُجَجِ العِرفانِ، مرتقياً بالدُرِّ، متّقياً، للعقلِ تحتكمُ

وعِشتَ عُمرَك في أحضانِ عزّته مُستأنِساً، فَرِحاً، تَسمو بك الهِمَمُ

صقلتَ مرآتَك الدنيا على جبلٍ منه ترى النورَ في الأُخرى وتقتحمُ

فعِشْ سَعيداً بما حاولتَ، مُتّصلاً بما عَشِقتَ وما في القلبِ يُستلَمُ

كُنْ مُطمئنّاً، فعدلُ اللهِ يَغمُرُنا هو العليمُ الرحيمُ الحاكمُ الحَكَمُ

برحمةٍ منه يُحيي كلَّ مَن صَدَقوا فإنْ صَدقتَ لك الجنّاتُ تَبتسمُ

سامي ابي المنى

صفحةٌ بيضاء ناصعه

د. توفيق بحمد*

الدكتور سامي مكارم.. ساميٌّ المكارم

عندما تذكره يحضر اليك الخبر كله... ويحضر اليك تواً العلم والمعرفة... ويلفك التوحيد بعباءته.

الدكتور سامي مكارم عندما تراه... يحضر اليك الأنس كله وتلمس وتتلمس إنسانية الإنسان فيه، والأهم أنك تحسها وتشعر بأنك قد أصبحت الدكتور سامي مكارم، عندما تجالسه يجلس معك تواً الأدب والإحترام... اللطف... والمحبة.

الدكتور سامي مكارم عندما تحاوره تغوص معه في محيط المعرفة وتسمع حواره شغوفاً ... شغوفاً مبتهلاً لله أن تنهل رشفة من معرفته.

الدكتور سامي مكارم عندما يتكلم اليك...، وأنت مستمعاً، يتجاوب صدى صوته، مع موجات الأثير الكوني عندها... تنصت مذهولاً، شغوفاً، مبتهلاً عله يحمل عبق أفكاره التوحيدية الصافية النقية اليك عبقاً منها... وتتأوه وتتوق شوقاً في كونه الخاص علّك تحظى برشفة فرح اللقاء معه ثانية... وتلتهب توقاً، لمعرفة مشاهدة بريق عينيه وتحترق الكلمات حياءً منه عندما تسأله عن المشاهدة وتسمع كلامه... عندها تعيش معه لوحته التصويرية الخاصة به. لا أذن سمعت- ولا عين رأت _ ولا خطر ببال بشر.

* طبيب وكاتب.

وتتصارع دقات القلب...لاهثةً وراء وراء نظرات معرفته... علك تمسك واحدة منها. لحظة ما تلمست معرفة سره... وقلت له: علمني سلوك الطريق.

سلوك الطريق ردد هو وقال لي مبتسما... صدقاً لا أستطيع إلا إذا كنت صفحة بيضاء وبيضاء ناصعة... ليستطيع الله سبحانه أن يحط عليها شيئاً مهماً لك.

علمت عندها أن هذه هي صفحته البيضاء، وقلت له: قسماً... وعداً... جهداً وكداً... سهراً وعناءً وسعياً لأكون، قال لي أيضاً... لا أستطيع إلا إذا كنت إناءً نقياً فارغاً من كل رغبات الدنيا وما عليها... إناءً نقياً فارغاً تماماً... حتى من أصغر نقطة ماء ليسكب الله سبحانه فيه كل ما عنده من خيراته ولطفه ونوره، قلت إذاً هذا هو إناء سامي مكارم الإنسان.

وعرفته كما عرفه معي نخبة من أهل التوحيد والإيمان وعرفنا سره ورحنا نتلمس خطاه مع مجموعة من محبيه الطلاب علنا نهتدي سلوك الطريق معه. وأكرمني بمكرمة من أقواله في مقدمة كتاب... الآن الآن ستكون هي أيقونتي... نعم الآن بعد الغياب.

الدكتور سامي مكارم حمل مكارم والده الدكتور نسيب مكارم، رسم مخطوطاته المكارمية وأبدع... وحفر لوحاته التوحيدية في قلوبنا وودع... وكتب الكتب، شرح المعاجم، فسر الأحاجي الإنسانية لوجود الإنسان ووسع...

وحاول أن يدخلنا على وحدة الكون لمعرفة النواة، علنا نهتدي إلى انسانية الإنسان فينا فكان الدكتور سامي نسيب مكارم، رحمه الله .

أَعْلَى مِنَ الغِيابِ وَالحُضُوْرِ

أ.عِصَام رامِز سَلْمان*

حِيْنَ تتَقَصَّدُ الكَلامَ عَنْ دِكْتُوْر سامِي مَكارِم، تَجِدُكَ خارِجَ اللُّغَةِ وَالتَّعْبِيْرِ، فتُخاطِبُهُ بالنَّبْضِ وَالوَعْيِ؛ فَتَشِفُّ الحُرُوْفُ لِتَصِيْرَ المَعْنَى المَحْضَ، مُتَلَطِّفَةً بِلَطافَتِهِ، مُتَوَهِّجَةً بِحُضُوْرِهِ السَّامِي. حَيْثُ يَنْطُقُ الصَّمْتُ، وَتَصِيْرُ الكَلِماتُ أَجْنِحَةً، وَالعِباراتُ عُيُوْنَ القَلْبِ. وَتَحْتَ لأَلآءِ لَطافَتِهِ تَجِدُ جَمْعاً بِصِيْغَةِ المُفْرَدِ، وَمُفْرَداً بِجَمْعِ الجَمْعِ. فِيْهِ تَعانَقَتْ رَهافَةُ الرَّسْمِ وَلَطافَةُ الخَطِّ وَعُذُوْبَةُ الشِّعْرِ، بِيَقْظَةِ الفَلْسَفَةِ وَعُلُوِّ التَّصَوُّفِ لِتَكُوْنَ جَمِيْعاً مِرْآةَ وَلُغَةَ تَوْحِيْدِهِ. ما اسْتَوْقَفَتْهُ هُنَيْهَةً زَحْمَةُ الأَلْقابِ وَالأَسْماءِ وَالدَّرَجاتِ وَالمَنازِلِ، بَلْ كانَتْ مَعْراجَ تَرَقٍّ فَوْقَ الحَواسِ وَالأَنا، صَوْبَ الكُلِّ المُشْرِقِ. فَوَقَفَ حَياتَهُ مُناضِلاً فِي سَبِيْلِ حَقِيْقِيَّةِ الوُجُوْدِ، واهِباً عِلْمَهُ إِلَى صاحِبِ هَذا العِلْمِ وَغايَتِهِ وَنِهايَتِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى. مُشِعًّا رُوْحاً وَجَسَداً لِيُشارِكَ بِبَساطَةِ الضَّوْءِ، وَعُلُوِّ الجَمالِ، أَجْيالاً مِنَ مُرِيْدِيْ الحَقِّ وَالحَقِيْقَةِ.

أَطْلَقَ جَوْهَرَهُ فِي مَعْناهُ فَأَزْهَرَ كُتُباً وَأَبْحاثاً تَقُوْلُ حُبَّهُ وَوَعْيَهُ وَانْجِذابَهُ الدَّائِمَ لِمَعْنَى المعانِي... أَطْلَقَ جَوْهَرَهُ فِي مَعْناهُ فَتَشَلَّلَ لَوْحاتٍ ثُوْرانِيَّةً تُمْسِكُ الزَّمَنَ وَاللَّوْنَ وَالحَرْفَ فِي وَحْدَةِ الجَمالِ... أَطْلَقَ جَوْهَرَهُ فِي مَعْناهُ فَتَشاسَعَ شِعْراً يُسَبِّحُ، وَنَثْراً يُقَدِّسُ، وَلَحْناً يُمَجِّدُ عَظَمَةَ

* مهندس، كاتب وشاعر.

الْمُبْدِعِ جَلَّ جَلالُهُ... أَطْلَقَ جَوْهَرَهُ فِي مَعْناهُ فَسَالَ قَلْبُهُ عَلَى لِسانِهِ بِحِكَمِ وَلِيِّ الحَقِّ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ، فَأَغْنَى مُسْتَمِعِيْهِ وَما أَكْثَرَهُمْ فِي لُبنانَ وَالخارِجَ، أَغْناهُمْ عِرْفاناً وَشَوْقاً وَيَقْظَةً. لأَنَّهُ تَحَقَّقَ بِعَطايا البارِئِ جَلَّتْ قُدْرَتَهُ فَأَعْطَى، وَتَواضَعَ لِنِعَمِهِ فَحَمَدَ وَشَكَرَ وَعَلا.

وَاليَوْمَ نُوَدِّعُ كَثِيْفَهُ، فِيْما يَبْقَى لَطِيْفُهُ فِي حالِ اسْتِقْبالٍ دائِمٍ فِيْنا. وَإِذْ نَتَهَيَّبُ غِيابَهُ عَلَى امْتِدادِ انْتِباهِنا، نَتَيَقَّنُ أَنَّ أَحِبَّاءَ اللهِ أَعْلَى مِنَ الغِيابِ وَالحُضُوْرِ، وَأَعْمَقُ مِنَ القُرْبِ وَالبُعْدِ، لأَنَّهُمْ صَنْوُ الوَعْيِ وَالمَعْرِفَةِ وَالخَيْرِ وَالجَمالِ. وَنَتَحَقَّقُ بِأَنَّ مَنْ سَلَكَ مَحَجَّةَ الحَقِيْقَةِ لا يَسْتَطِيْعُهُ المَوْتُ، وَتَخْدُمُهُ الحَياةُ... رَحِمَهُ اللهُ.

نستذكرك ولا ننساك

السيدة دنيا أبو خزام الشعار*

يا مهجة القلب ويا رقة الجنان...

صلاة ترقرقت في شعرك

أجرام تموسقت في خطك

عذوبة تطيبت في صوتك

سبحانه الذي أبدعك...

لألاء نقاء ملامسنا

معاتبنا... مقومنا

حتى أمسيت نفحة رحمة فينا

حتى أمسيت حجة الحق علينا

وأنَى لنا الوداع ، وكيف يكون الوداع؟

وأمثالك لا يفنون... يرتحلون

يتنقلون... يتألقون

وجدا وعطرا وتسبيح...

* رئيسة جمعية "سدق" التوحيدية الخيرية.

جاءك حبيبك متأنسا

فرنوت بطرفك نحوه عاشقا ولهان...

أسلمته روحك التي من روحه مدادها

وعبقها... ولطفها

أنت الماثل بين يديه لا من مكان ولا من زمان

الطائر بجناحيه لأجل الطيران

المتبختر على دربه رضى وتسليما

النافخ في أرواحنا دفقا من وصال لا من وصول...

استودعتنا ، وما ودعتنا

فأنت في الهُنا وفي الهناك...

يا قارعا على أبواب قلوبنا بلا كلل

يا متلمسا في عتمتنا قبسا من نور

أين نحن منك ؟ يا ململم شتاتنا

ومهدي غفلتنا

ومشذب طباعنا

كلما أثقلناك بكثافتنا ازددت صبرا وحبا ولين...

اليوم نستذكرك لا لننساك ونطوي صفحتك
اليوم نستذكرك لنحيا فيك بأجمل حللنا وأنقى صورنا
نستذكر فيك جوهرنا الأصيل يمتد عروقا في الزمن
ينير عتمة حاضرنا ومحنة فرقتنا...
تألق سموك في مكارمك إسما وشخصا ووجدان...
وامتد وفاء وعرفانا في إرثك وفي زرعك.
ودعت الأحبة في خفر مستتر
والحسن لناسوتك يبتهل
يتفتح الحزن أزهارا راضية
ويتفتق جودك براعم واعدة
أيا شجرا قبَل الأديم بخيره
خير تثاقل على عودك يتدلل
يناجي رحمة، من وجده يتعلق
وأنت المسافر لا زادا ولا حجب...
أيا ثمارا كنت لها الغصن مدادا
أزهري ثباتا ووعدا وخصال...
وكوني للإرث وفية
وكوني للحق في عز الوصال...
دكتور سامي مكارم ، رحمك الله منتقلا ، ورحمنا... أحياء نرزق .

من القلب الى القلب

"جمعية واحة العطاء الخيرية"

بسم الله الرحمن الرحيم

معاهدة،

من القلب إلى القلب..

لا زمان ولا مكان ما دام القلب واحد هو هو..

طلب من واحة العطاء (الجمعية) أن تكتب كلمة،

ماذا تكتب في هذا الكتيب، وعن من تكتب ولمن تكتب ؟

هل تكتب من القلب وعن القلب وإلى القلب وفي القلب؟

إسم الجمعية واحة العطاء الخيرية

وما الواحة من دون ينبوعها ؟

لا واحة من دون ينبوع، وغاية الينبوع هي الواحة ..

متلازمان في المظهر ومتحدان في المعنى...

وما العطاء ! والعطاء محبة.. والمحبة عطاء..

وكيف ينفصلان؟

والعطاء من دون محبة هو عدمي،

والمحبة من دون العطاء وهمية..

هذه هي قصة واحة العطاء مع ينبوعها ..

تفجرت فيه ومنه وإليه ماء الحياة ..

ارتوت منه بذورها، خدمها بصدق أحاسيسه،

حنا عليها ورعاها بثبات عطفاً ومحبةً..

وترعرعت

وترعرعت في حناياه

وإستقام عودها... وعلمت

أن غاية النجاح للواحات هي في السكون و الخشوع بين راحتي ينابيعها...

الينبوع المتفجر حقاً وخيراً وجمالاً

لن ينضب، ولا يفنى

و كذا واحتك تعاهدك

إخلاصاً في الحركة

إستمراراً في السعي

وثباتاً في المجاهدة عبر طريق البقاء...

طموحك تخطى الزمن

تمنيت وجاهدت لتوصيل رسالة المسافرة في مراقي العلم والتعليم والتعلم ...

دأبك حاضرٌ باقٍ مستمر

وشعلته نارٌ موقدة

تنير القلوب وتهديها في رحلتها عبر الزمن

بلا طريق...

واحة العطاء الخيرية

عهدنا لك ومنك..جماعة..

وكل أصحاب الخير في كل الواحات

أن نيتك وغايتك وطلبك

حاضرٌ في حضورك، باقٍ في رسالتك، مستمرٌ في محبيك..

كرم المولى وعطاؤه تأنس لنا بوجود مكارمه بيننا في هذا العصر،

فكيف لنا إلا أن نرضى بأحكامه ونسلم الرسالة علماً وعملاً....

المثالُ الأعلى والأبُ والصديق

نسيب سامي مكارم*

أيها الوالد العرفانيّ الحبيب. أيها الموحّد المؤمنُ الإنسان، المنتمي إلى جذورك العائلية الأصيلة، وإلى تراثك الروحيّ العميق، لقد علمتنا كيف يكون الولاء لكل ما هو أصيلٌ ونبيل وشريف، حين تمثلتَ السلفَ الصالح، وصرت فرعاً من شجرةٍ طيبةٍ أعطت ثمارها للعائلة وللجميع.

حدثتَنا عن آل مكارم وعن طائفة الموحدين وعن الحكماء العقلاء الذين علّموا الإنسان معنى الحكمة والمنطق والعقل، فكنت بذلك صاحب الرأي الحر والعقل الراجح، وأنت مَن سعيت صادقاً لأن تصير مثالاً صالحاً للإنسان الموحِّد الأصيل.

فقدناك، أيها الوالد العزيز، وفقدتك طائفة الموحدين الدروز التي طالما أنجبت الشرفاء والمفكرين، وأعطت الإبداعَ العديدَ من المبدعين. ولكن تأكّد بأنّ اسمُك سيبقى في سجلّ الخالدين، شرفاً لنا وقدوةً ومعلّماً، وبأنه يحقُّ لنا أن نرفع رؤوسنا عالياً، لأننا أبناء سامي مكارم، وأنه واجبٌ علينا أن ننحني إجلالاً لذكراك الباقية فينا، وقد علّمتنا حبّ الناس وتمنّي الخير للجميع، وها نحن مثلَك نتمنى ألّا تزور الأحزانُ منازلَ محبّيك ومن أحببت، وأن يعيشوا بأمانٍ وسلام وعافية.

أنت تُدرِكُ يا أبي أننا قومٌ لا نجزع من الموت، إذ هو مشيئة الله تعالى، بل نعتقد أنّ كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وأنّ الله وحده هو الحيُّ الذي لا يموت، والكلمَ الطيبَ يبقى مع الأجيال. لذلك نحن راسخون في عقيدتنا أمام المصابِ الجلل، نتساءلُ ماذا يقول الأبناء عن أبيهم لحظة الفراق والوداع الأخير؟ بل ماذا يجب أن يُقال عن هذا الغياب المفاجيء؟ ولكننا نُجيبُ بأننا نعرف ونعترف بأنّ سامي مكارم، تجاوز في علاقته معنا علاقة الأب بالأبناء، فصار مثالنا الأعلى، وصديقنا الأصدق والأقرب.

نناديه بالشجرة المزهرة المثمرةِ أبداً، وقد نهلنا من ثقافته الواسعة، وتعلمنا كيف يصير الإنسان جزءاً من هذا الكون، وكيف يصير الكون كلُّه إشارةً للتوحيد، وهو الذي كان مسلكه من مسالك أهل الورع والتصوف. لم نسمع منه يوماً إلّا الكلمة العاقلة، التي تعبّر عن حقيقة هذا المسلك الروحانيّ الشريف القائم على الصدق وأدب الصحبة والمحبة، وقد كان يتمثل بقول الإمام الشافعي:

لسانُك لا تذكرْ به عورةَ ٱمريءٍ فكلُّكَ عوارتٌ، وللناسِ ألسُنُ

فيا أيها المحبُّ للجميع، أيها الأُذُنُ التي كانت تصغي للجميع، أيها العينُ الساهرةُ على رسالة التوحيد تنقلُها للجميع، أيُّها اليدُ المعطاءُ، أيُّها الانسانُ الصّدوقُ الذي أحب أن يتكلمَ أبجدياتِ الأصدقاء والمعارف، وأيها الأكاديمي المتماسك، والأستاذ الذي لم يبخل يوماً على تلميذ أو طالب معرفة، هل نرثيك أم نتحدث إليك كأنك لم تزل حيّاً بيننا؟ وأنت مَن علّمتَنا أن الحياة ليست حضوراً جسدياً فحسب، بل هي حضورُ الفكر الذي يستمرُّ حياً مدى الأزمان.

ويا أيها الفنان الذي أبدع ما يميّزه عن الآخرين، حتى عن والده الخطّاط والفنان الكبير الشيخ نسيب الذي خطّ أبياتا من الشعر على حبة الأرزّ، وكتب دستور الدولة العثمانية على بيضة. أنت مبدعٌ ابنُ مبدعٍ... وهل غريبٌ أن يترك الإبداع أريجاً ورائحةً عطرةً كلما ذكركم الذاكرون؟

ايها الوالد، الصديق، الأستاذ، الأخ والحبيب، لا يَحملُ نعشَك المحمولَ على الأكفّ إلى مثواك الأخير غيرُ حبّنا وإجلالنا لك، فلك منّا الكثيرُ من الحبّ والإجلال، نُقدّمه لك باقةَ وفاءٍ واعتزازٍ، من أبنائك وبناتك: سحر، رند، نسيب وسمير.
رحمك الله وأسكنَك فسيحَ الجنان.

قصة عبد الباسط الأمين مع الدكتور...

السيدة نجوى زيتون ناصر الدين*

لفتني هذا الرجل "عبد" وقد عهدته رجلاً مليئاً بالفرح والنشاط، يتوارى وراء الشجر، يتلمس جذوعها ووريقاتها في حال من المعانقة وكأنه يؤكد لها بقاءَه ووجوده بعد سؤالها له عن فقدانها لليد الحنون التي طالما لامستها كل صباح وذكّرتها أن تسبح مبدعها في وجوده. ويسقيها من دموعه واعداً إياها بالثبات على معاملتها في غياب الدكتور بالقدر الممكن من الوفاء والمحبة.

من هو هذا الرجل؟ ولماذا هذا الحزن والأسى المحيط بالشوق إلى اللقاء؟ تقرّبت إليه وسألته عن حاله؟ فأجاب: لا تسأليني فحالي في لوعة على الفراق من دون كلمة وداع، وشوق دائم إلى لقاء لا أعلم كيف يكون. يقولون أن الدكتور غاب، وكيف غاب وهو لن يغيب ما زال الجمال باقياً تحت ملمسه. أشار إلى الحديقة وشملها بتلويحة من يديه وقال: كل هذا الجمال هو ما وقعت عليه عيناه كل صباح وسبّح خالقه به وهو باق ببقائه، وليس لنا غير هذا الجمال لنبقى وتبقى فينا الحياة. جسده غاب ولكن جماله باق لن يغيب. وقال عبد مؤكداً: أعدك يا دكتور بأن أبقى على عهدك أخدمك في خدمة بستانك وشجراته وأزاهيره وحجارته ودروبه، فليس لي ذكرى إلا بما وقعت عليه عيناك وحدبتَ عليه بمحبتك.

* نائب رئيس جمعية واحة العطاء.

سألته: كيف أتيت إليه يا عبد لتعمل في خدمته؟

فقال رحم الله صديقه من ضيعته "الشيخ نعيم عبد الله" الذي قال لي يوماً كانت بها السماء تصلي لسعادتي: أريد منك أن تذهب وتعمل في خدمة هذا الرجل فإنك سترتاح في مجاورته وخدمته.

ما كنت أعلم ما هي معاني الراحة و كيف تتجلى في مجاورة أو خدمة إنسان. وهكذا بدأت رحلتي في جواره منذ اربعة عشر عاماً.

عملت لديه أول الأمر لاكتساب لقمة العيش، ولكن عبر مرور الأيام والسنين تغير الحال وصرت في خدمة رجل هو كل أهلي. هو أبي وأمي وصديقي وسيّدي. تابع عبد بوصفه للدكتور بزخمٍ، إلى حد أن توقفت عن الكتابة وذلك لأنني لم أستطع أن ألحق بتدوين ما يقوله لغزارة القول وأيضاً لكي أشهد صدق تعابيره على ملامح وجهه.

قال: إنه المحب الحنون المتواضع الطيب المشتاق دائماً إلى الخير والجمال والفرح. إنه الصادق الأمين الوفيّ المتلهف إلى خدمة الخير في الدنيا وأهله. إنه الصافي الطاهر المتزن الحكيم في المعاملة بين الناس وإظهار الحق. إنه المدقق المحاسب في مداخل أمواله ومخارجها وفي ما يحل له من المأكل والمشرب.

توقف عبد عند هذه الجملة وقال لا تؤاخذيني بالقول ولكن أنا خادمه وأعلم خفايا الأمور وحقيقتها لأني كنت المنفذ لخواطره وطلباته. إنه الكتوم المستتر عن تدقيقه في الحلال والحرام، مستتر عن صدقاته وكرمه للسائل المحتاج، محاسباً نفسه ومبرئاً أملاكه من كل ما ليس له. وأخبرني عن طلب الدكتور منه أن يُرجع كل الحجارة التي رمتها القذائف خلال الحرب من عقار الوقف المجاور لعقاره إلى أماكنها وذلك لتبرئة ذمته.

توقف عبد عن الكلام ليمسح دموعه، وتجمع أولاده وزوجته وكلٌّ منهم يردّد ما يتذكره عن الدكتور من خصال ومآثر.

طلب مني عبد أن أروي قصة الحادثة التي أصابت الدكتور عندما وقع عن السلّم في بيته منذ عدة سنين مضت، فقال: سمعت ضجة في المنزل الكبير فهرعت لكي أستطلع السبب فوجدت الدكتور مستلقياً على ظهره في الأرض والدم ظاهر على ساق بنطاله، وعند كشفي للقماش وجدت أن عظمة ساقه مكسورة ونافرة من الجلد والحالة صعبة. ذُهلتُ ليس فقط لهول المنظر المؤلم بل من صبر الدكتور على حاله وألمه وأيضاً لما قال لي محاولاً التخفيف من صدمتي وهمي عليه "الحمد لله يا عبد، ما أجمل ما يأتي من الله". ما هو غريب وغير عادي هو قوة صبره وتحمله للألم وكلمة الحمد لله لم تفارق ملافظه.

وتابع"عبد". ماذا أقول عن هذا الأب الصالح، عندما أمشي إلى جانبه أشعر بروحانية وأرتاح وأنسى همومي. أحب أن أبقى قريباً منه لتبقى هذه الروحانية ملازمة لي.

قاطع أحد أولاد عبد الحديثَ وقال، إني أحبه كثيراً وأريده دائماً أن يكون راضياً عني وسعيد. إنه يهتم بحاجاتنا ودراستنا ويفرح معنا بالعيد. وتحدثت زوجة عبد عن قدرته الصادقة في جبر الخواطر، وعن نفسه العزيزة والمتواضعة والصغيرة والبعيدة عن الكِبَر والتعجرف.

وتابع عبد القول: ان لطافته وتواضعه جعلاني أشعر وكأني أنا السيد وهو الزائر في هذا البيت عندما كان يتصل بي في طريقه إلى عيتات من بيروت ويقول لي "أنا طالع نام عندك يا عبد".

لم أستفق يوماً مهما كانت الساعة مبكرة إلا ورأيته قد سبقني، إمَّا منهمكاً بالكتابة أو الرسم، أو منكبّاً على كتاب يقرأه. وأسأل نفسي متى ينام هذا الرجل ومن أين له هذه الطاقة التي لا تفارقه، لا في نهاره المليء بالعمل والحيوية،ولا في سهراته الطويلة مع إخوانه وأصدقائه، ولا في لياليه المليئة بالدراسة والكتابة. حتماً إنه رجل قريب جداً إلى إلهه فهذه الطاقة المعطاة له هي نعمة إلهية.

الحديث مع عبد يطول ويطول، قلت له: ماذا بعد الدكتور يا "عبد"؟ فأجابني ليس من بعد أو قبل، بل شيء واحد هو رحلتي مع الدكتور فقط، صوته في رأسي يخاطبني وأسمعه. محبته في قلبي باقية معي إلى انتهاء حياتي. جمال هيئته أتخايلها في أحلامي وتعطيني الأمل بأنه باقٍ في مزاياه وخصاله. بستانه هذا

هو حقل عملي لكي أتابع المسيرة واستمر بالذي علمني إياه: بأن كل شيء زائل إلّا الله باقٍ بجماله.

رحمة الله عليك يا دكتور "ويللي متلك ما بينخاف عليه"
وهنيئاً لك يا عبد على هذه التجربة.

مؤلفات وسيرة حياة

رحلة في مؤلفات د. سامي مكارم*

آ.هدى مكارم *

ترك مكارم ثلاثين كتاباً، مطبوعاً أو مخطوطاً، في حقولٍ معرفيّةٍ مختلفة؛ تعكس غنى ثقافته، وتنوّع اهتماماته ضمن وحدة شخصيّته. وتتراوح هذه الحقول بين التّاريخ، والسّيرة والتّصوّف، والعرفان، وتاريخ الأدب، وتحقيق النّصوص، وأدب الرحلة، والشعر، والترجمة، والسّيرة الذاتيّة...، وهو يتعامل مع كلّ حقلٍ بما تُمليه طبيعة الحقل وآليات الاشتغال فيه[1]. سنحاول فيما يلي إلقاء نظرة مقتضبة على مؤلّفاته، انطلاقاً من المجالات الّتي شغلها:

التّاريخ: يعتمد مكارم منهج البحث التّاريخيّ، ويتقصّى الحقيقة التاريخيّة في مظانّها، ويطاردها في عشرات المراجع باللّغات العربيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة، فهو لا يؤرّخ عن هوى، ولا يميل مع العصبيّات على أنواعها[2]. ونرى تطبيقاً لهذه المنهجيّة في كتابه:

"**تاريخ الموحّدين الدّروز في المشرق العربيّ**" الّذي وضعه مع المؤرّخ الرّاحل عبّاس أبي صالح، في وقتٍ عصيب من تاريخنا، تعرّض فيه الدّروز الموحّدون لهجمة شرسة، شكّلت خطراً على وجودهم، وصورة هويّتهم الإسلاميّة، فكانوا فيها عرضة لسهام الفتنة، والتّشكيك خلال حرب الجبل في الثّمانينات. أوضح

* من نصٍّ موسّع بعنوان "سيرة حبٍّ ومسيرة عطاء".

*كاتبة.

١. جريدة الحياة ٢٩ أغسطس ٢٠١٢، سلمان زين الدين، عدد ٤٢٩٩٤٢.

٢. م.ن. ص.ن.

هذا الكتاب أنّ نسب العائلات الدّرزيّة يعود إلى قبائل عربيّة معروفة في بلاد الشّام قبل الإسلام و بعده، مبيّناً أصولهم العربيّة ونسبهم، موضحاً نسبهم التّنوخيّ، وكيفيّة قدومهم إلى لبنان، والمراحل السياسيّة الّتي عاشوا في ظلّها، متناولاً موضوع الدّعوة التّوحيديّة والظروف السياسيّة التي نشأت فيها.

وفي كتابه الآخر: "**لبنان في عهد الأمراء التنوخيّين**" يستهلّ المؤلّف الكتاب بذكر حلف القبائل الّذي سمّي تنوخاً، والّذي يرجع إلى ماضٍ غابر امتدّ لقرون قبل ظهور الإسلام، ثمّ يستعرض أسماء الملوك الذين تعاقبوا على عرش تنوخ، مبيّناً الأدوار الّتي لعبوها، والمآثر التّارخييّة الّتي خلّفوها، ثمّ يتطرّق إلى الدور الّذي لعبه آل تنوخ في الإسلام خصوصاً من جهة الفتوحات والانتصارات، والى الحيّز الجغرافيّ الّذي شغلته، مركّزاً على تصحيح وتوضيح الكثيرمن الالتباسات، منها مسألة الخلط الحاصل بين شخصيّة الأمير أبي الفوارس معضاد بن همّام الفوارسي، وبين الداعي أبي الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسيّ، كما يتطرّق الكتاب إلى أدوار أمراء الغرب في عهد الخلافة العبّاسيّة، فالفاطميّة، والأمراء الجميهريّين في عهد الأيّوبيّين، ثمّ ثالوث الأمراء، وهم: جمال الدين حجى، وسعد الدين خضر، وزين الدين صالح، في فترة الاضطرابات الّتي حصلت ما بين الأيّوبيّين والمماليك والمغول والفرنجة، وصولاً إلى عهد المماليك البحريّة والمماليك البرجيّة. وينتهي الكتاب بسرد سيرة الأمير جمال الدّين عبد الله التنوخيّ، موسّعاً في دوره الإصلاحيّ المتعدّد الجوانب باعتباره "نموذجا للفناءعن الأنا، ومثالاً للرضى والتسليم...". ويقدّم بعد ذلك استنتاجه العام من هذا البحث[٣].

٣. الشيخ غسان الحلبي، مجلّة الضحى ص ٢٠-٢١.

الفكر التوحيديّ:

كتب الدكتور مكارم في الفكر التوحيدي، مضمّناً كتاباته لمحةً تاريخيّة عن الدعوة التوحيديّة، والأسس العقائديّة لمذهب التوحيد. وكتب في العرفان كتباً عديدة ومفيدة، وهذه أهمّ كتبه:

"**العرفان في مسلك التوحيد**" يطلّ هذا الكتاب بمقدّمة ترسم تمثّل دولة العدالة مع ظهور الدولة الفاطميّة، لتوضح المفهوم الحقيقيّ للقيامة، وهو إكمال الشّريعة بالطّريقة، وإكمال الطريقة بالحقيقة، وفيه تبيّن المحبّة الحقّة حركتها الانجذابيّة ماهية الوحدة والكثرة وأسباب الطغيان وطريق الخلاص، كما تبيّن علاقة الحقّ والخلق، الفرق والجمع، وكيفيّة التوازن بفعل التأييد ليحقّق كلٌّ من العقل والقلب والجوارح كماله، ويغتبط المريد بنشوة المعرفة اللّدنيّة، بعد تخصّله بشروط التوحيد، وإحيائه للأسس المعرفيّة، فيعرّج إلى فلك الرحمة والرحمانيّة والمحبّة، ليُرفع عنه حجاب الغيريّة، بتعرّفه إلى نقطة البيكار، فيجد نفسه ينظر في مرآته، ﴿وانّه الحقّ اليقين﴾(سورة الحاقّة (٦٩): ٥١)، ويختتم الكتاب بابتهالاتٍ توحيديّة.

ويندرج في السياق نفسه كتاب:

"**أضواء على مسلك التوحيد**" وهو كتاب هادفٌ لوضع الأمور في نصابها، وإجلاء الجدل والملابسات الّتي أحاطت بهذا المسلك، وتشكيل نظرة داخليّه إلى التوحيد، من وجهة نظر أتباعه. وقد (وفّق الدكتور سامي مكارم، من خلال لغته الحازمة، ومنطقه

والروح والحياة الأخرى، ومفهوم التوازن بين الطبائع الوليّة الذي يدرك المريد عبره ماهية الجنّة والنار. كما صوّب بعد ذلك مقولة عودة الروح إلى مصدرها، وهي مرفوضة من المنظار التوحيديّ إذ هي لم تنفصل لتعود. وشدّد على مفهوم التقيّة ودورها الّتي لم يعرها المؤلّف الاعتبار المطلوب، وصحّح المقولة الخاطئة الّتي تبنّاها المؤلّفوالّتي تقول بأنّ الدعوة كشفت قبل أوانها، كما عالج مسائل أخرى أخطأ المؤلّف في فهمها وطرحها، وهي: الحاكم، علاقة التوحيد بالإسلام وبغيره من الأديان التوحيديّة، ومسألة إغلاق دعوة التوحيد. ويخلص بنتيجة مفادها أنّ د. عبيد إذ أراد "ترميم العقيدة" -كما قال- فقد أحدث عقيدة أخرى مختلفة كلّ الاختلاف، إذ الإصلاح لا يبدأ إلا بعد فهم العقيدة حقّ الفهم، وفهم حقيقتها ومغزاها وأهدافها.

"التقيّة في الإسلام" يستهلّ المؤلّف كتابه بالتركيز على أمرين، الأمر الأوّل: أنّ التقيّة هي من الأسس المهمّة في الإسلام، والفرق الّتي لا تمارسها هي شاذّة، أمّا الأمر الثاني أنّ لها شروطاً شرعيّة وأصولاً ومقتضيات أقرّتها الشّريعة الإسلاميّة لا الفقه فحسب. ويستند في ذلك إلى ما ورد في سورة آل عمران وسورة النحل ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلّا إن تتّقوا منهم تقاة ويحذّركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾(سورة آل عمران ٢٨). ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من اكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم﴾(سورة النحل ١٠٦) وإلى ما تنقله السيرة النبويّة في

المحبوك، وتبيانه للحقائق والقرائن الوافية والمبيّنة إسلاميّة المذهب، في وضع نقاط الحقيقة الّتي يمكن أن تعالج المسألة بكلّيّتها، وليس اجتزاءً مشوّهاً لأساس الموضوع)[٤] وصدرت تلك التوضيحات العلميّة مقرونة بجوانب تصوّب النظرة التوحيديّة، وتجلو عنها التباسات عديدة. وجاءت مقدمه الكتاب التي وضعها المفكّر كمال جنبلاط لتشكّل اعترافاً بأهميّته، وتنويهاً بجهود مؤلّفه في البحث والدرس والتقصّي.

"**الإسلام في مفهوم الموحّدين**" وفيه أوضح نظرة الموحّدين إلى الله، عزّ وجلّ، والى الإنسان، والى العلاقة بين الله والإنسان. كما أوضح معاني الإسلام والإيمان والإحسان، ومرتكزات الإسلام في نظر الموحّدين، وبالتّالي فهو بذلك أشار إلى موقع الموحدين الإسلاميّ، وإلى الطريقة الإسلاميّة الّتي يتّبعونها.

"**الدروز وعقيدتهم في التوحيد**" وهو كتاب وضع فيه مكارم ملاحظاته حول كتاب الدكتور أنيس عبيد، وإذا كان هدف المؤلّف جعل هذه الطائفة أكثر انخراطا في مسار الركب الحضاريّ، فإنّ د. مكارم شاطره الرّأي، ولكنّه ركّز على منطلق رئيس وهو أنّ تحقيق التقدّم لا بدّ له أن ينطلق من الفهم الصحيح للعقيدة التوحيديّة، وهو الّذي لم يكن محقّقاً كما يجب لدى المؤلّف الّذي وقع في جملة مغالطات عرضها مكارم مقدّماً تصويبات جمّة لمفاهيم ومصطلحات وطروحات توحيديّة بدقّة وموضوعيّة، أبرزها: موضوع الدعوة التوحيديّة، مفهوم الإبداع، والصورة، والنور، كذلك العقل الكلّيّ وطبائع الخير والشرّ، كما صحّح مفهوم العلاقة بين الجسد

٤. حسّان زين الدين، مجلة الضحى ص ١٣.

قصّة عمّار: أنّ عمّاراً – أحد المهاجرين من مكّة إلى المدينة– وقع في أسر الكفّار، فقال لهم كلاماً اطمأنّوا إليه تقيّة، فأخلوا سبيله، ولما وصل إلى المدينةأخبر الرسول (ص) بما حدث فسأله : كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟أكان منشرحاً بما قلت أم لا؟ قال: لا. فنزلت الآية ﴿إلّا من أكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان﴾السابق ذكرها. ثمّ يذكر آراء العلماء في شأنها، ليصل إلى الآية الشهيرة الّتي وقف منها المفسّرين موقفين متباينين في مفهوم التفسير الباطنيّ للنصّ وهي ﴿وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكر إلّا أولوا الألباب﴾(سورة آل عمران – ٧).

ولعلّ أجمل ما يقدّمه الكتاب هو التشديد على إعطاء الآخر المقدار الّذي يحتمله من المعرفة، فلا يكاشفه أو يساتره إلّا على إمكانيّة تهيّئه المعرفيّ، بالإضافة إلى الدعوة إلى الانفتاح وقبول الآخر، ويخلص بنتيجة مفادها أنّ أحد الأسباب الّتي تسم المجتمع الإسلاميّ بالهشاشة والضعف هو الشكّ المتبادل والخداع الاجتماعي والولاء الطائفيّ، لذا، فثمرة الكتاب دعوة إلى الكلمة السواء الناتجة عن المودّة الّتي تتجاوز اللسان إلى القلب "إذ هي تعبير عن الحقيقة الّتي تغذّي النّاس، كلّ على قدر ما هو عليه من صحّة دينه وعقله، وعلى قدر ما هو مهيّأ له من الارتقاء في مراقي الإسلام".

٩. محمد السمّاك، مجلّة الضحى، م س، ص٢٣.

العقيدة الإسماعيليّة:

كتب د. مكارم في العقيدة الإسماعيليّة، كمن خبر المكنون في أعماقه، فمؤلفاته في هذا المضمار شاهدة على تضلّعه في الفكر الإسماعيليّ وسعة بصيرته، وعلى أهمية بحوثه عن الإسماعيليّة، الّتي تعتبر من المراجع المهمّة لدراسة فكر تلك الجماعة منها كتاب "العقيدة الإسماعيليّة"، وكتاب "الشافية"، وكتاب "Abu al-Fawaris Ahmad ibn Ya'qub"، وكتاب "The Political Doctrine of the Ismailis"، بالإضافة إلى عدّة مقالات.

في السيرة العرفانيّة الغيريّة:

ينهض مكارم بعبء ثقيل حين يتناول ظاهرات عرفانيّة تجلّت في كتبه الآتية:

"**الحلاّج في ما وراء المعني والخطّ واللّون**"، محاولاً جلاء غموض يحيط بهذه القمّة من قمم التصوّف، من خلال استكناه ما يتعدى عالم الشهادة، وتجاوزه إلى عالم الغيب. يلمّ هذا الكتاب في -الفصل الأوّل- بحياة الحلاّج، ظهوراً وصعوداً ومصرعاً، وبعرفانه التوحيديّ في الفصل الثاني بصفته ظاهرة عرفانيّة ذات توجّهاتٍ معرفيّةٍ، وشخصيّةٍ صوفيّةٍ كبيرةٍ، كرّست حياتها لاستطلاع الحقّ من خلال العبارة الّتي تتجاوز في مراميها، معانيها الحسّية والعقليّة، إلى معان لا يدركها إلّا الصّفوة من النّاس، وقد أسفر الكتاب عن استنتاجاتٍ فريدةٍ لم يسبق لباحثٍ أن تطرّق إليها.

وللإطار نفسه، يمكن أن نضمّ كتاب "**عاشقات الله**" إلى هذه المجموعة، فهو يتحدّث عن سبع وليّات قمن بدورٍ مهمٍّ في وضع الأسس لنظريّة الحبّ الإلهي في التصوّف الإسلاميّ فيما بعد.

وكتاب "**الشيخ علي فارس**" الّذي هو استعراض لسيرة علم من أعلام الورع والزهد والعلم في المسلك الّذي ارتضاه، والبعد المعرفيّ الّذي أثمره والّذي تجلّى قصائد في العشق الإلهيّ. وقد تضمّن الكتاب شرحاً لهذه القصائد، وتعليقات تقارن ما بين فكر ومسلك الشيخ علي فارس وغيره من رجالات الصوفيّة أمثال الجنيد وأبي يزيد البسطامي والحلّاج وغيرهم... وعليه فإنّه في استقرائه لشعر الشيخ علي فارس يضعه في إطاره الطبيعيّ الصحيح، "إطار الإسلام بما فيه من عرفانٍ ذوقيّ هو نتيجة حتميّة لانتهاج الشريعة ظاهراً وباطناً، واعتقاد الطريقة مقاماً وحالاً، واعتناق الحقيقة مسلكاً وعرفاناً"، على حدّ تعبيره.

أمّا في السّيرة الذاتيّة الروحانيّة:

فإنّ كتاب "**مرآة على جبل قاف**" ينقل تجربته العرفانيّة حيث تنجدل شعريّة السّرد والوصف والمناجاة والشعر بالسيرة الذاتيّة الروحيّة لتصوّر حركيّة نموّ الحقّ في نفس العارف، بعدما جاهدت طويلاً، وكانت من قبل تائهة في معمعة التناقضات والرغائب، حتّى اشتملتها المحبّة الإلهية بعد المداومة على طلب الرحمة، فعرفت هويّتها

الأصيلة، وذاقت السعادة أحوالاً ومقامات. ولما أدركت أنّ الخلاص لا يكون إلّا بالجمع، نشرت تجربتها لتتشارك معرفتها وعرفانها، فجاء الكتاب المذكور بمثابة تصوّرٍ لمشروعٍ ينهض بالإنسانيّة لترى توجّه البوصلة الحقّ بعدما ضيّعتها الأوهام الواهية بالزخرف والمجد الباطل، لعلّ هذا المشروع يأخذ مداه الأبرز في الإصلاح في فصل الثورة الّذي رسم فيه الأحداث المعاصرة، ومسالك رجال السياسة والدين...

باستثناء فصل الثورة، فإنّ الكتاب هو مسافرة في رحاب الحرّيّة الّتي يتمظهر جمالها متعالياً على الزمان والمكان، هو الرحلة الّتي أرادها "السيمرغ"، وحقّق سعادته فيها، حيث غدا مرآة صقيلاً على جبل قاف، جبل العارفين الموحّدين. وقد قال المطران جورج خضر عنه: "هذا إنجيلي!".

أمّا في أدب الرحلة:

فيكتب مكارم "**ضوء في مدينه الضباب**" متلمّساً ضوء الحقيقة خلل ضباب الوقائع، في رحلة قام بها إلى لندن خريف العام ١٩٩٧ لثمانية أيّام؛ ويدوّن خلالها انطباعاته ومشاهداته وتأمّلاته، ويتعدّى الوقائع والمظاهر والأشياء إلى ما ورائها، ويتجاوز التفاصيل إلى السلك الّذي ينتظمها، ويرى ما هو أبعد من العاديّات واليوميّات وأبقى، تحدوه رهافة في الحس، ونفاذ في الرؤية، ودُربة في الغوص على الأعماق، في حين يتلهّى كثيرون بالوقائع والتفاصيل والسّطحيّات، ويغرقون فيها، فيصرفهم سرابها عن الماء، ووهمها عن الحقيقة.

أمّا في الشعر:

فلا يشذّ مكارم عن انشغاله بما وراء المظاهر والوقائع، فيتناول ما هو من متعلّقات الروح، ويحلّق في فضاءات صوفيّة، تترفّع عن المادّيّات، وتخترح عوالمها الخاصّة، فكتابه "**قصائد حبّ على شاطئ مرآة**" يحوي مجموعة قصائدَ في الحبّ الّذي سافر فيه نحو كماله الأخصّ به، وكذلك كتاب "**مرآة على جبل قاف**" السّابق ذكره.

زيادة على ذلك جملة الترجمات الشعريّة والنثريّة والّتي نذكر منها "شيراز مدينة الأولياء والشعراء"، "الشافية" وهي قصيدة إسماعيليّة لشهاب الدين فارس، ترجمها للإنكليزيّة مع شرح وتعليقات. ومجموعة الأعمال الّتي حقّقها و/أو قدّم لها ككتاب "ديوان أمين تقيّ الدّين" الّذي جمعه المؤلّف وحقّقه وقدّم له، و"ديوان الفلك" للأمير أمين آل ناصر الدّين الّذي أعدّه أيضاً وحقّقه، وقدّم له، ومقدّمة كتاب "الوصيّة والميراث عند الموحّدين" من تأليف الشيخ مرسل نصر، والمرحوم الشيخ حليم تقيّ الدّين، وكتاب "من تراث الموحدين: الشيخ نسيب مكارم: فنّ وتقى وجمال". وكتاب "صدى السّنين"، وهو جملة قصائد للشّاعرة حنان عاد، وقد كتب مكارم مقدّمته، كما كتب غيرها الكثير من المقدمات.

وتجدر الإشارة إلى ثلاثة كتبٍ قيد النشر الآن بينها كتابا شعر هما: "نون والقلم"و"زهرة اللّيلك"، وثالث يتضمّن سيرة حياته. فضلاً عن جملة أعمالٍ أخرى، لكنّ المنيّة وافته قبل إكمالها.

إضافة إلى العديد من المقالات بالعربيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة، ومجموعة كلمات مسافرة في رحاب الفكر الثقافيّ بصورة عامّة لإيقاد جذوة المعرفة، وبثّ روح المحبّة والسّلام.

فضلاً عن إبداعه في مجال الفنّ التّشكيليّ، حيث ينشغل مكارم بالحروفيّة، فيكتشف الطّاقات الكبيرة الّتي يكتنزها الحرف العربيّ، ويضفي من روحه وموهبته ما يكفي لاستخراج هذه الطاقات، فاللّوحة عنده هي استخراج الامكانات التشكيليّة الكامنة في الحرف العربيّ، فيتعدّاه إلى ما فوقه، ويجعل منه شرفه تطلّ على المطلق والفن والجمال.

على أنّ حضور مكارم الثقافيّ / الحضاريّ لم يقتصر على الإرث المكتوب المتمثّل في إنتاجه المعرفيّ في حقول مختلفة، بل تجاوزه إلى جانب تطبيقيّ تواصل فيه مع طلّاب العلم، والعطاش إلى المعرفة، والباحثين عن الحقيقة، فأقام ندوات دوريّة، ورعى جمعيات شبابيّة، وكان له معجبون ومتابعون وطلّاب. وبذلك، وهو ما كان يوما ليُنظّر من برج عاجيّ، بل ينزل إلى أرض الواقع، وينخرط في التطبيق.

وإذا كنّا نوافق على أنّه (كلّما كانت الأمّة تعاني أزمة حضاريّة، وتشهد فلسفتها وعقائدها ارتداداً أو عجزاً عن الفعاليّة في دائرة الذات والمجتمع والتاريخ، كلّما كان ذلك إيذاناً وعلامة على أنّ الأزمة هي في الصّميم داخل الكائن،

وليست خارجه)[٥]. فإنّ إنجازات مكارم تشهد بأنّه أحد وجوه تطهير الفكر العربيّ في عصر العولمة. إذ عمل طيلة العقود الأخيرة من القرن العشرين في سبيل تصحيح الخلل الّذي يشوب، في أحيانٍ كثيرةٍ، العلاقة الحضاريّة بين الشرق والغرب، ويشوّه صورة الإسلام السمحاء، ودوره الريادي في مسار نشأة الأمم وتحوّلاتها عبر الأجيال. فقد آمن بالحوار الحضاريّ، وتبنّى صوابيّة أن تحمل اليد اللبنانيّة مشعل النهضة في العالم العربيّ. كما حمل مع زملائه، في زمن الحرب اللبنانيّة والتخلّف العربيّ، لواء النهضة، وتحرير الفكر، ورسم، أمام الأجيال العربيّة الشّابّة، دربًا تليق بإنسانيّة القرن الحادي والعشرين[٦].

وقد كان محاوراً بعقلٍ، ومسالماً بحقٍّ، وحكيماً في التعاطي مع الآخرين، لأنّه رجل حكمة وسلام وحوار ومحبّة بالدّرجة الأولى... ونزعة الإقصاء والإلغاء لا مكان لها في قاموسه العلميّ والفكريّ والتوحيديّ؛ وخير دليل على ذلك، ما كان يردّده في أحيان كثيرة تلك الآية الكريمة: "ولو شاء ربّك، لجعَلَ الناس أمّةً واحدةً ولا يزالون مختلفين"(سورة هود، آية ١١٨)[٧].

ولعلّ السّرَّ القائم وراء كلّ تحقيقاته تمثّل في البحث عن الحقيقة، في السعي العمليّ، في المجاهدة في الشوق لمعرفة النفس التي انطوى فيها العالم الأكبر[٨]، حتّى

٥. حاشية: الإنسان والحريّة عند محي الدّين بن عربي، سعيد الشبلي، دمشق: منشورات دار علاء الدين، ط٢، ٢٠٠٨.
٦. Focusonlebanon.com.
٧. المستقبل – الجمعة ٣١ آب ٢٠١٢ – العدد ٤٤٤٥ – رأي و فكر – ص ١٩.
٨. بحسب تعبير ابن عربي: وتحسب أنك جرم صغير و فيك انطوى العالم الأكبر".

صفت نفسه فانجلت لها حقائق عرفانية، فغدت مرآة صقيلاً لإظهار الصور... ثم مكّنها الوجد من وصف مسافراتها لتكون منارة أنسٍ للسفن التائهة... فعلّم كيفيّة مخاطبة النّاس بالّتي هي أحسن... ودعا إلى ضرورة الانخراط في الواقع والتفاعل معه بهدي العقيدة واليقين، اللّذين لا سبيل إليهما قبل بدايات التنصّل من شباك الأنا الهدّامة والمعمية، إذ هي مصدر كلّ سوء وتفرقة. وعليه فهو قد (انتهج التوحيد منهج حياة معاصرة في التفكّر والمحبّة، وفي القول والفعل، وفي الذكر والمذاكرة، وفي البحث والاستشعار، وفي الإلقاء والسماع، وفي التدريس والتّأريخ، وفي الفنّ وتذوّق الجمال، وفي الشغف بالتراث والشوق إلى التجدّد، وفي النظرة المسؤولة إلى الذات، ونظرة الشفيق الرفيق إلى الآخر... وفي نبذ الخلاف واحترام الاختلاف، وفي انجباله بالصّبر، وحرصه على وحدة الكلمة، وفي براعته في فنّ التواصل، ومراعاته خصوصيّات الوعي عند الناس...)[٩].

٩. الضحى، م س. ص ١٦ .

سامي مكارم
"سيرة حياة"

ولد سامي مكارم في ١٤ نيسان، ١٩٣١ في عيتات احدى قرى قضاء عاليه، لبنان. وهي قرية مشرفة على بيروت تبعد عنها حوالي ٢٠ كيلومتر وتعلو عن سطح البحر حوالي ٦٥٠ متراً.

والده الشيخ نسيب مكارم صاحب الروائع الفنية في مختلف انواع الخطوط العربية لوحاتٍ كبيرةً ومتوناً متقنة الفن، ومبدعُ الاعمال الدفيقة خطاً ورسماً على قطعٍ من الرخام والفضة راوحت بين حجم بيضة الدجاج، كاتباً عليها ما يزيد على عشرة آلاف كلمة، وحجم حبة الارزّ وحبة القمح. توصل الى ان يكتب عليها ثلاثين بيتاً من الشعر عدد كلماتها ٢٨٧ ، وان يرسم عليها الاثار الضخمة كقلعة بعلبك والمعالم الصناعية المِفْصلية كأولى السيارات في العالم، وان يحفر عليها وينزّل الحفر ذهباً نافراً كخريطة لبنان بانهاره ومدنه الرئيسة.

والدته وسيلة سليمان فرج من قرية عبيه احدى قرى قضاء عاليه ايضاً. وقد اشتهرت كزوجها بالتقى والفن الرفيع وانتجت اشغالاً يدويةً في فن التطريز نالت عليها جوائز واوسمةً وبراءاتٍ ضُمَّتْ الى جوائز زوجها وأوسمته وبراءاته.

له ابنتان سحر ورند وابنان هما نسيب وسمير. وهو متزوج من ليلى عادل مكارم. له شقيق واحد رحمه الله اسمه سعيد امتهن التعليم وكان يُعَدّ حجّةً ثقةً في اللغة العربية.

تلقى سامي مكارم علومه الابتدائية والمتوسطة في الليسيه الفرنسية في بيروت التابعة للبعثة العلمانية الفرنسية، كما تلقى الثانوية في الكلية اللبنانية في سوق الغرب. اما المرحلة الجامعية فكانت في الجامعة الاميركية في بيروت حيث حاز درجة بكالوريوس في الادب والفلسفة عام ١٩٥٤ ودرجة ماجستير في الادب العربي عام ١٩٥٧. وكان في غضون ذلك يدرّس الادب العربي في الكلية اللبنانية في سوق الغرب ثم في كلية الصراط في عاليه. ثم انتقل الى جامعة ميشيغان في آن آربر، ميشيغان، الولايات المتحدة الاميركية لينال منها عام ١٩٦٣ درجة دكتوراه في الفلسفة في دراسات الشرق الاوسط متخصصاً في الدراسات الاسلامية الباطنية. وكان الى ذلك يدّرس اللغة العربية في الجامعة نفسها.

وعاد سامي مكارم الى لبنان في تموز ١٩٦٣ ليدرّس الفكر الاسلامي في الجامعة اللبنانية. ثم عيّن في العام ١٩٦٤ استاذاً مساعداً في الجامعة الاميركية في بيروت في الادب العربي والفكر الاسلامي.

وفي سنة ١٩٧٠ رقي الى درجة استاذ ملازم في الجامعة الاميركية، ليرقّى فيما بعد الى درجة استاذ الادب العربي والفكر الاسلامي والتصوف في الجامعة نفسها ولغاية تاريخ وفاته. وقد شغل في الجامعة الاميركية رئاسة دائرة الادب العربي ولغات الشرق الادنى مرتين: ١٩٧٥-١٩٧٨ و ١٩٩٣-١٩٩٦ ، كما كان استاذاً غير متفرغ في برنامج الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية من عام ١٩٧٧ الى عام ١٩٨١ . وقد عُيّن ايضاً مديراً مركز دراسات الشرق الاوسط في الجامعة الاميركية في بيروت من عام ١٩٧٥ الى ١٩٧٨ .

كان لوفاه والده الشيخ نسيب في ٤ حزيران ١٩٧١ وقع اليم على سامي مكارم. فقد خسر فيه الاب الحكيم المحبّ كما خسر فيه الفنان المبدع الذي كان يشعر فيه بالاكتفاء الفني. فقد كان الابن عندما يجد نفسه بحاجة الى التمتع بالفن يرى الى اعمال والده فيُشبع نهمه. وكان الوالد والابن الى ذلك يربطهما رابط من الصداقة والمحبة والحميمية يفوق رابط الابُوّة والبنوّة على قوة هذا الرابط وشدته. فلما قضى الوالد شعر الابن بحاجة الى استرجاعِهِ قويةٍ. وامسى نظُره الى اعمال ابيه الفنية يخالطه الحزن ويشوبه الشعور الاليم بفقدان حبيب غاب شخصه دون رجوع. وشعر الابن برغبة ملحة الى شهوده. وإذ كان يشعر بان اباه هو في صميم قلبه وانه كان يمثل له الخَلْقَ الفني وإبداع الجمال، أخذ يحاول استعادته من خلال فنه. وبعد ثماني سنين قضى الابن بعضها في تحفّزٍ للخَلق وبعضها الآخر في التعبير من خلال ريشته، تجمعت لدى الابن باكورة من لوحات قام بعرضها في قاعةٍ من قاعات مكتبة الجامعة الاميريكية وكانت على خطى كلاسيكية الوالد. وقد نالت استحسان الجمهور مما شجّع الفنان الابن على المضيّ قدماً في الفن، متحرراً شيئاً فشيئاً من الكلاسيكية ومتخذاً من الحرف العربي منطلقاً لفنٍ تشكيلي يستوحي التراثَ في توجهاته الجمالية ومشاركته في الحداثة والابتكار والابداع ومستغلاً طبيعة هذا الحرف، الى جانب كونه وسيلةً للتعبير عن المعنى ، في انه غاية جمالية وظاهرة فنية بحد ذاته لما يمتاز به من بُعد في اللانهاية ومن حركية وطوعية وليونة جعلته قابلاً لانه يكون معْبراً الى جمال يتعدى المعنى الى فضاءات من الانطباعية تسرح فيها الاخْيِلة والأحاسيس والعواطف لتتلاقى بالعقل والقلب معاً، فلا يبقى الفنان منفصلاً عن عمله الفني بل يسعى الى ان يشترك مع المتلقي في عواطفه وأحاسيسه وأخيلته وافكاره.

وهكذا اصبحت لوحات سامي مكارم، بما فيها من شخصانية تشكيلية ومن تجريدية للحرف، معابر الى رؤى تخوض في بحر من صوفية عرفانية لا شاطئ له ولا قاع. وقد اندمج في لوحاته الحرفُ واللون والحركة لتتكون ثلاثيةٌ هي في نظر الفنان تتعدى البصر الى الخيال والرؤيةَ الى الرؤيا. وهكذا استطاع سامي مكارم ان يجمع الى جانب نشاطه الاكاديمي والفكري ومؤلفاته العلمية تراثاً من الفن التشكيلي غنياً. ولم يقتصر الفن عنده على الفن التشكيلي بل تعداه الى الشعر فصدر له، الى جانب كتبه ومقالاته وبحوثه العلمية في التصوف والاسلاميات والفن والتاريخ والسياسة، ومئات من الاعمال الفنية التشكيلية التي عرضت في معارض كثيرة في لبنان والبلاد العربية واوروبا واميركا، ثلاثة دواوين شعرية هي "مرآة على جبل قاف" (١٩٩٦)، "وضوء في مدينة الضباب" (١٩٩٩)، و "قصائد حب على شاطئ مرآة" (٢٠٠٤)، تميزت ببعدها الصوفي وعمقها ورقتها.

أمّا آخر نتاجه الأدبي والفكري فهو ثلاثة كتب صدرت له بعد وفاته، وهي سيرة حياته، وديوانا شعر: "زهرة الليلك" و"نون وقلم".

(مؤلفات) الراحل الدكتور سامي مكارم

١- **الشعر العربي في لبنان بين الحربين العالميتين** (مخطوط). رسالة الماجيستر في الادب العربي _ الجامعة الاميركية في بيروت.

دراسة نقدية حول الشعر العربي في لبنان بين الحربين العالميتين: مؤثراته، مذاهبه، اهم ممثليه.

٢- **اضواء على مسلك التوحيد (الدرزية)**، مع مقدمة لكمال جنبلاط، بيروت: دار صادر، ١٩٦٦ .

دراسة نقدية لكتاب مذهب الدروز والتوحيد تأليف عبدالله النجار. بَحَثَ فيه الكتاب.

٣- **Ash-Shafiya, an Isma'ili Poem attributed to Shihab ad-Din Abu Firas** (edited and translated into English with introduction and commentary), Beirut American University of Beirut, ١٩٦٦.

بحث في العقيدة الاسماعيلية من خلال ارجوزة للداعي الاسماعيلي شهاب الدين ابي فراس تناول فيها العقيدة الاسماعيلية. رسالة الدكتوراه في جامعة ميشمغان، آن آربر.

٤- **شيراز، مدينة الاولياء والشعراء**، بيروت مكتبة لبنان ١٩٦٧

ترجمه الى العربية للكتاب Shiraz, Persian City of Saints and Poets by Arthur J. Arberry, Norman University of Oklahoma, ١٩٦٠.

بحث في خمسة اعلام من شيراز هم: ابن خفيف وروزبهان البقلي وحافظ وسعدي.

٥- **The Doctrine of the Isma'ili**, Beirut: The Arab Institute for Research and Publishing, ١٩٧٢.

بحث في العقيدة الاسماعيلية وتاريخها.

٦- **The Druze Faith**, Delmar , New York: Caravan Books. (١٩٧٤ First printing) (١٩٧٩ second printing)

دراسة في العقيدة التوحيدية وتاريخها. أُلف الكتاب بطلب من سماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية الشيخ محمد ابو شقرا، ومن الجمعية الدرزية الاميريكية.

دراسة باللغة العربية في العقيدة التوحيدية وتاريخها الكتاب بطلب من سماحة الشيخ محمد ابو شقرا شيخ عقل الطائفة الدرزية.

٧- **La Fe Druza**, Traducido por Nidal Afif Saab, Maracaibo ترجمة الى الاسبانية للكتاب **The Druze Faith**

٨- **The Political Doctrine of the Ismailis (The Imamate)** Delmar, New York ١٩٩٨ Carvan Books

دراسة عن مفهوم الامامة في العقيدة الدرزية وهو تحقيق للرسالة الاسماعيلية، رسالة في الامامة تأليف الداعي الاسماعيلي أبي الفوارس أحمد بن يعقوب داعي الحاكم بامر الله مع ترجمتها الى الانكليزية ومقدمة مفصلة حول مفهوم الامامة عند الاسماعيليين، وتعليقات حول العقيدة الاسماعيلية.

٩- **قصص ومشاهد من جبل لبنان** لمحمود صعب (تحقيق مع مقدمة نقدية)، بيروت المجلس الدرزي للبحوث والانماء، ١٩٧٩ ، بيروت: نوفل، ١٩٩٩ (طبعة ثانية)، تحقيق واعداد لكتاب يبحث في قصص ومشاهد لبنانية تظهر عادات الشعب وتقاليده وفضائله. وهي قصص واقعية من التاريخ الحديث.

١٠- **تاريخ الموحدين الدروز السياسي في الشرق العربي** بالاشتراك مع الدكتور عباس ابو صالح، بيروت المجلس الدرزي للبحوث والانماء، ١٩٨٠ .

بحث يشتمل على تاريخ الموحدين الدروز السياسي في لبنان وسوريا وفلسطين منذ نشوء الدعوة التوحيدية الى العصر الحديث.

١١- **ديوان الفلك** لامين آل ناصر الدين، بيروت: المجلس الدرزي للبحوث والانماء، ودار النهار، ١٩٨٣ . تحقيق مع مقدمة نقدية للديوان وللشاعر.

١٢- **الشيخ نسيب مكارم، فن وتقى وجمال**، بيروت: دار بابل، ١٩٨٤ .

(طبعة فاخرة) دراسة نقدية في الفنان الخطاط الشيخ نسيب مكارم، حياته، فنه، ومنزلته الفنية والاجتماعية مع مقدمة وافية في فن الخط العربي وجذوره وتطوره واثره في الفنون الاسلامية.

١٣- **الاسلام في مفهوم الموحدين**، بيروت: ندوة الاربعاء، ١٩٨٥ دراسة مختصرة عن علاقة الموحدين بالاسلام وتصوف هذه الفرقة.

١٤- **الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون.** لندن: رياض نجيب الريس للكتاب والنشر (الطبعة الاولى ١٩٨٩) ، (طبعة جديدة منقحة ومزيدة) ٢٠٠٤ .

١٥- **الشيخ علي فارس،** ولي من القرن الثامن عشر، بيروت المركز الوطني للمعلومات والدراسات، المجلس الدرزي للبحوث والانماء، ١٩٩١ .

١٦- **عاشقات الله** ، بيروت: دار صادر، ١٩٩٤ .

(طبعة فاخرة مع رسوم بريشة المؤلف) دراسة لسبع من متصوفات من القرنين الاول والثاني للهجرة هنّ: عفيرة بنت الوليد البصرية، وماجدة القرشية، وحيُّونة، وريحانة، وشعوانة، وميمونة وعوسجة. وقد كن اما معلمات واما رفيقات واما تلميذات لرابعة العدوية. وقد شملت هذه الدراسة مفهوم الحب في التصوف المبكر كما تناولت دور المرأة في التصوف الاسلامي.

١٧- **ديوان امين تقي الدين،** بيروت: دار صادر ١٩٩٦ .

جمعه المؤلف وحققه وقدم له بمقدمه درس فيها حياة الشاعر ودوره في عصر النهضة.

١٨- **مرآة على جبل قاف،** بيروت دار صادر، ١٩٩٦.

(طبعة فاخرة مع رسوم بريشة المؤلف) وهو عبارة عن معاناة عرفانية نثراً وشعراً تتدرج في فصولها الثمانية لتكوّن ما يمكن ان يسمىّ سيرة ذاتية روحية للمؤلف. وقد استوحى عنوان الكتاب من اسطورتين هما جبل قاف واسطورة السيمرغ.

١٩- **ضوء في مدينة الضاب،** جونيه، ديناميك غرافيك للطباعة والنشر، ١٩٩٩ .

يدور الكتاب حول رحلة قام بها المؤلف الى لندن في خريف العام ١٩٩٧ . وقد تضمنت الزيارة معرضاً للوحاته الفنية كما تضمنت امسية شعرية ومحاضرة في كلية الدراسات الشرقية والافريقية في جامعة لندن، ومحاضرة اخرى في المدرسة الدولية في لندن. استغرقت الرحلة ثمانية ايام تكلم فيها المؤلف سعراً ونثراً عن انطباعاته الانسانية والعرفانية.

٢٠- **لبنان في عهد الامراء التنوخيين،** بيروت: دار صادر، ٢٠٠٠ .

يتناول الكتاب تاريخ الامراء التنوخيين ودورهم السياسي والعسكري والروحي وهو يختصر تاريخ الموحدين الدروز في جبل لبنان منذ الدعوة التوحيدية حتى القرن السادس عشر. كما يتضمن اصل التنوخيين وتاريخهم منذ ما قبل الاسلام.

٢١- **التقية في الاسلام،** لندن: مؤسسة التراث الدرزي، ٢٠٠٤ .

يتناول الكتاب موضوعاً من اهم الموضوعات التي أثرت في مجرى التاريخ الفكري والسياسي والاجتماعي للاسلام وقد بحث المؤلف مفهوم التقية لاول مرة بطريقة شاملة وموضوعية وذلك لدى اهل السنة والجماعة، والخوارج والشيعة الاثني عشرية والزيدية والمعتزلة والشيعة الاسماعيلية والدرزية والنزارية والمستعلية والعلوية، كما بحث التقية لدى الفلاسفة الاسلاميين ولدى المتصوفة.

٢٢- **قصائد حب على شاطئ مرآة**، بيروت: نوفل، ٢٠٠٤ .
(العناوين بخط الشاعر) مجموعة شعرية صوفيّة تحتوي على ٣٧ قصيدة في الحب نظمها الشاعر بين عامي ١٩٩٧ و ٢٠٠٣ وقدّم لها بقدمة عن فلسفة الحب.
٢٣- **العرفان في مسلك التوحيد**، لندن: مؤسسة التراث الدرزي ٢٠٠٦ .
بحث في عقيدة التوحيد العرفانية، تشتمل على مفهوم الدولة الفاضلة، الشريعة والطريقة والحقيقة في مسلك التوحيد، مفهوم المرآة في عقيدة التوحيد، شروط العرفان التوحيدية، الرحمة والرحمانية والمحبة في عقيدة التوحيد.

فصول في كتب

١- " المقدمة " كتاب المعتمد بن عبّاد وشعراء عصره لزهدي يكن، بيروت، دار يكن للنشر، ١٩٧٥.
٢- An Advitic Sect in Western Asia" in Spiritual Prespectives, edited" by M.T. Mahadivan. Madras, The University of Maddras, ١٩٧٨.
٣- " رافع بن ابي الليل أمير بني كلب في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر وأوائل عهد المستنصر" في دراسات عربية واسلامية، تحرير د. وداد القاضي. بيروت، الجامعة الاميركية في بيروت، ١٩٨١ .
٤- " المقدمة "، كتاب الوصية والميراث عند الموحدين الدروز للشيخ مرسل نصر والشيخ حليم تقي الدين، بيروت، ١٩٨٣ .
٥- Ismaili and Druze Cosmogony in Relation to Plotinus and Aristotle, in Islamic Theology and Philosophy Studies in Honor of George F. Hourani, edited by Micheal E. Marmura. Albany, State University of New York, ١٩٨٤.

٦- "المقدمة" ديوان على دروب التوحيد لفؤاد الخشن، بيروت، المكتب الدائم للمؤسسات الدرزية، ١٩٨٥ .

٧- "المقدمة"، ديوان جبل النار لمالك حمدان. بيروت، المجلس الدرزي للبحوث والانماء، ١٩٨٦ .

٨- " المقدمة " ديوان خزاميات لمحمد أبي خزام، بيروت ١٩٨٧ .

٩- " العروبة والمسيحية والاسلام " في الحق في الذاكرة، تحرير د. أنطوان مسرّة، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الاهلي الدائم، ١٩٨٨ .

١٠- " سلام الراسي، الاديب والمفكر والمؤرخ"، في سلام الراسي شيخ الادب الشعبي، تحرير حبيب صادق، بيروت، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ١٩٩١ .

١١- " الدولة اللبنانية وتنوع الاديان : النموذج والتطبيق " ، في العبور الى الدولة من المعاناة الى المواطنية، تحرير د. انطوان مسرّة، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الاهلي الدائم، ١٩٩٢ .

١٢- " البعد الحضاري للقومية العربية في فكر علي ناصر الدين "، مقدمة لكتاب علي ناصر الدين، صفحات من الفكر القومي العربي تأليف د. محمد شيا، بيروت، دار صادر، ١٩٩٣ .

١٣- " الطائفية والدين، الطائفية والدولة، الطائفية والمواطن "، في وقائع لقاء الحوار اللبناني، تحرير د. مصطفى دندشلي، صيدا، المركز الثقافي للبحوث والتوثيق، ١٩٩٣ .

١٤- " التنوخيون "، في لبنان في تاريخه وتراثه، الجزء الاول، تحرير د. عادل اسماعيل. باريس، مركز الحريري الثقافي، ١٩٩٣ .

١٥- " علاقة الموحدين الدروز بالمسيحيين، دراسة تاريخية ونظرة مستقبلية " في العلاقات الاسلامية المسيحية، تحرير د.سمير سليمان، بيروت، مركز الدراسات الاستراتجية والبحوث والتوثيق، ١٩٩٣ .

١٧- " الميثاق : عهد وميثاق "، في مواطن الغد، الجزء الرابع، تحرير د. أنطوان مسرّة، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الاهلي الدائم، ١٩٩٥ .
١٨- " الرحمة والرحمانية والمحبة عند الموحدين "، في الله الرحمة الله محبة، انطلياس: مركز الدراسات والابحاث المشرقية ٢٠٠٣ .
١٦- " فؤاد الخشن والتصوف "، في فؤاد الخشن الإنسان والشاعر، تأليف زهرة العبد حمود (رسالة اعدت لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها)، الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الانسانية، الفرع الأول، ١٩٩٣ .

المقالات العلمية

١- " أبو هلال "، دائرة المعارف، تحرير د. فؤاد افرام البستاني، المجلد الخامس، بيروت، المطبعة الكاثولكية، ١٩٦٤ .
٢- " الأمر الإلهي ومفهومه عند الاسماعليين "، الأبحاث، المجلد ١ (١٩٦٧)، بيروت، الجامعة الاميركية في بيروت .
٣- The Philosophical Concept of the Imam in Isma'ilism, Studia Islamica, volume ٢٧ (١٩٦٧).
٤- Al Hakim bi-Amr Allah, an Essay in Historical Reinterpretation", Proceedings of the ٢٧th Congress of Orientalists. Ann Arbor, Michigan ١٩٦٩.
٥- The Hidden Imams of the Isma'ilis" Al-Abhath, volume" ٢١ (١٩٦٩).
٦- Al Hakim bi-Amr Allah Appointment of his successors", Al-Abhath," volume ٢٢ (١٩٧٠).

٧- "٧٥ God and Man in the Druze Faith", Prabudha Baharata (India), vol. (١٩٧٠).

٨- Arabic Literature", The Joy of knowledge Library, edited by James" ١volume,Brazeley.

٩- Les Druzes", Lumières: Encyclopédie Thérmatique et Analogiques," Beyrouth, Joquart editeurs, ١٩٨٠.

١٠- " بنو الجراح "، تارخ العرب والعالم ، بيروت، ١٩٨٦ .

١١- " الدروز "، الموسوعة الفلسفية، تحرير د. معن زيادة، بيروت، ١٩٨٨ .

١٢- " النتوخيون ودورهم السياسي في الجبل من الفتح العربي الى ١٥١٦ م " مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة ١٣ ، العدد ١٤٥ (أيلول (سبتمبر) – تشرين الأول (أكتوبر)، ١٩٩٣ م – ربيع الأول – ربيع الثاني، ١٤١٤ هـ).

١٣- "كلمة ميثاق في الدستور اللبناني"، الحياة النيابية، العدد ١٣ (كانون الأول، ١٩٩٤). بيروت: المديرية العامة للدراسات والابحاث في المجلس النيابي اللبناني.

١٤- " وريقات المرذكوش : عجاج نهويض، المؤرخ والمجاهد (١٨٩٦ – ١٩٨٢) "، المؤرخ العربي ، بغداد، الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد ٥٢ ، السنة العشرون (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م).

١٥- " الرسالة الرهبانية : الدور والخيار في لبنان والعالم"، اليوبيل المئوي الثالث لتاسيس الرهبانية المارونية في لبنان – دير سيدة الجبل، فتقا، لبنان، ١٩٩٥ . نشر في مجلة الحكمة، العهد الثاني، السنة الثانية، العدد ١١ (كانون الثاني – يناير، ١٩٩٦).

١٦- The Druze Faith" , Conference at St. Anttony College," Oxford, ٢٠٠٢.
١٧- Sufism in the Druze Faith" Conference at St. Anttony" College, Oxford, ٢٠٠٤.

النشاط الثقافي

١- عضو مجلس امناء المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم.
٢- الأمين العام للمجلس الدرزي للبحوث والانماء.
٣- رئيس دائرة الدراسات والابحاث العلمية في مؤسسة التراث الدرزي.

الجوائز والأوسمة

١- مواطن شرف لمدينة هيوستن في الولايات المتحدة الاميركية وحائز على مفتاح المدينة.
٢- حائز وسام المؤرخ العربي – اتحاد المؤرخين العرب.
٣- حائز درع وزارة الثقافة – لبنان.
٤- درع الحركة الثقافية في انطلياس، لبنان.
٥- درع نادي الليونز _ لبنان.
٦- درع رابطة العمل الأجتماعي، لبنان.

مواقف في كلمات*

إنَّنا إذا ما حَرَمنا مسلكَ التوحيد من نظرتنا إليه بروح من الإخلاص والتعمُّق والسّلامة من كلِّ ما ليس فيه، فلا سبيل إلى أيّ انفتاح أو تطوُّر. ونكونُ على عكس ذلك قد خلقنا عقيدة أُخرى استعاضَت عن طريق الانفتاح والتطوُّر بطريق أُخرى قائمة على الانقسام والفوضى والتشرذُم. هذه الطّريق إنَّما تؤدِّي بكلِّ تأكيد إلى انحراف عن غاية التَّوحيد كلّي. إذ لا يستطيعُ أحد أن يقومَ بإصلاحٍ لعقيدةٍ دينيَّة جذريّ وهو خالٍ من معرفة حقيقيَّة متعمِّقة لأسُس هذه العقيدة ولمبادئها الفلسفيَّة والعرفانيَّة والدينيَّة.

إنَّ الإنسان لا يستطيع أن يشعرَ بحضور الله إلا إذا شعر بانجذابه الحميم له. غير أنَّ انجذابًا كهذا الانجذاب لا يمكن تحقيقه إلا إذا أُعطيَ المرء نعمة الإحساس بحبِّ الله اللا محدود. فإذا ما شعر النّاس بهذا التحابّ يعمّ الأنس اللاهوتي. فالأُنس هو استيلاء هذا الشّعور على النّاس. أمّا النّاسوت فهو إنعام الله بالأُنس على النّاس (والنّاسوت كلمة مشتقَّة من النّاس، وهي اسمُ جمعٍ يدلّ على الإنسانيَّة المجرَّدة من الفرد، أي هي الحقيقةالجامعة لمعنى النّاس). إذن ليس النّاسوت كما عرَّفهُ البعض بأنَّه انكشاف الله (God's revelation)، أو أنَّه الحقل الإنساني لله (human medium). هذان التعريفان للناسوت لا يمتّان إلى العقيدة التّوحيديَّة بأيّة صلة.

* مقتطفات من كلمات للدكتور سامي مكارم.

صمْتُ الموحِّدين ليس تجاهلًا، وإنَّما هو مقابلة الشَّر بالخير، وامتثالٌ لتعاليم الرُّسُل ولِما بشَّروا به من فضيلة. هذه مثاليَّة تعودُ إلى عقيدةِ التَّوحيد عند أولي الشّأن الرُّوحي عند الموحِّدين، فهُم حماةُ الأخلاق التَّوحيديَّة. هذه الأخلاق التي لا يُمكنُ الوصُول إلى التَّوحيد إلا بتخلُّقها. أولو الشّأن الرُّوحي أولاء، لا يصدرون إذًا عن هوى، ولا يصدرون عن انفعالٍ آنيّ، وإنَّما يصدرونَ في أعمالِهم عن عقيدتهم التَّوحيديَّة، فهُم لا يريدون مطلقًا أن يفرِّطوا بمعرفتهم في سبيل موقفٍ ناتجٍ عن ردَّةِ فعل وإلَّا لانحجبت عنهُم المعرفة. وبالحقيقة، همُ الَّذينَ فهموا سرَّ المحبَّة دون أن يتبجَّحوا بها، ذلك أنَّ المعرفةَ والمحبَّةَ هما أمرٌ واحد عند الموحِّدين. المحبَّةُ هي الطَّريقُ إلى المعرفة، وهي في الوقتِ ذاته المعرفة ذاتها.

ثمَّة شخصية جمالية عربية محدَّدة لها خصائصها المختلفة عن جماليات الغرب، والخطّ العربي منطلق لإظهار هذه الشخصية، فالفن لا يُعبّر عن العقل فقط، إنما يتناول المشاعر والأحاسيس والأخيلة تماماً مثلما يستطيع أن يعكس صورة الماضي والحاضر ويحلم بالمستقبل. إنَّه لا يُمكن نفي العقلانيّة عن الحرف العربي، فهو يهتم إلى حد بعيد بصدق التعبير عن المعنى، والقراءة عملية عقلانيّة، وحين نتحدث عن الخط العربي في الماضي فإننا سنجد أن صفة العقلانية تلازمه.

نور على نور*

العلم لا يتحقّق إلا بالتعليم والتعليم لا يجدي نفعاً إلاّ إذا كان هدفه هداية الناس إلى الحق وإنارة العقل والقلب معاً وتعريف الناس بحقيقتهم.

وما غاية العلم؟ إنها الحكمة.

الحكمة ليست أخذك بضروب العلوم وحسب، بل إدراكُكَ الغاية من هذه العلوم والعمل في سبيل تحقيق هذه الغاية.

العلم اطّلاعُك على ظواهر الأشياء، والحكمةُ وُلوجُك في بواطنها، ثم اختراقُكَ إياها إلى ما وراءها من حقيقة.

العلم أن تدرك أسباب الأِشياء ونتائجها، والحكمة أن تدرك الغاية من وجودها.

العلم اطّلاع والحكمة إحاطة.

ليس كل مَن علم صار حكيماً ولا كلُّ من اطّلع أحاط. العلم وسيلة غايتها الحكمة.

أجهل الجهالات اتخاذ الوسيلة غاية.

إذا كان غياب العلم جهلاً فغياب الحكمة جهالة.

كمال العقل بالعلم وكمال العلم بالحكمة.

إذا كانت أداة العلم المنطق فأداة الحكمة الحبُّ الذي يأخذ بمجامع عقلك وقلبك كليهما، فإذا الحقُّ يُشرف عليهما ويُفعمهما بنورٍ يتقبّل نور الحق اللّدني، فإذا هو نورٌ على نور.

* من مقدمة للدكتور سامي مكارم، في كتاب حكمت ابو فراج "نور على نور".

نماذج من عبير شعره

فراشاتٌ حول السّراج

إنّ في قلبيَ أنغاماً من الحبِّ

تغنّي،

وتناجي

صورةً شفّت وروحاً تتلالى،

وجمالاً يتوالى،

وجلالا

نُصبَ عينيّ

يتجلّى النّورُ منه

أدمعاً حرّى

وشوقاً وابتهالا،

يبعث الأنوارَ في كينونتي

حالاً فحالا،

ويُمنّي

قلبيَ الصبَّ العشيقْ

أنّه يوماً سيمْحَقْ

في لظى نارٍ من الحبِّ الرحيقْ،

وسيُحرقْ

كفراشاتِ الدياجي

إذ تخلَّت عن فراشيّتها

بين يديْ ذاك السراجِ.

إنّ في قلبيَ يا ربِّ سؤالا

غيرَه أقسِمُ لا أبغي نوالا:

نجّني يا ربِّ من قيسيّة الطّين

لأحيا فيك ليلاويّةً

أمحو الأنا فيها

وأفنى،

وأُلاشي كلَّ أجزائي

بكلّك ...

في ارتقاء الذات من حالٍ لحالْ،

من لظى الشوقِ

إلى سحْقِ الجوى،

من ضنى الوجدِ

إلى محو الوصالْ!

وإذا حبُّكَ في قلبي استحالا

كلَّ ما في الكونِ

بدءاً ومآلا!

يَمَّحِي فيه المحبُّ

تنتفي فيه الأنا،

تختفي فيه الدُّنى،

كلُّ الدُّنى،

ويظلّ الحبُّ لا غيرَ

وقلبُ!؟

أرحلُ إليكَ

أرحلُ اليكَ
كما يرحَلُ الشّذا إلى المسكِ الفتيتِ
والطهرُ إلى قطرةِ ندىً
وقعَتْ على زهرةٍ من ياسَمين...

أرحَلُ إليك
كَما ترحَلُ الخفْقَةُ إلى القلْب
عند مَرأى الحبيب،
أو كما ترحلُ البسمَةُ إلى شفتَي طفلٍ
وقف أمام شمعتَين تتمايلان
على كعكةٍ في يومِ عيدِهِ...

أرحلُ إليك
كما ترحَلُ الطمأنينة إلى ليلٍ من ليالي الصّيفِ
في قريةٍ بعيدةٍ بعيدة
قُبَيْلَ طَلعةِ السَّحر...

أرحَلُ إليك
كما يرحل الخريرُ إلى جدولٍ ينسابُ
في صباحٍ من صباحاتِ نيسان...
أو كما يرحل الرفيفُ إلى جناح
يروح إلى عشّه هناكَ في شجرة الشربين...

أرحَلُ إليك
كما ترحلُ الأغرودَةُ إلى كناريٍّ
في قفصٍ من قصبٍ
عُلِّقَ على شرفة الحبيبة...

أرحل إليك
كما يرحل الدفءُ إلى المجامرِ
في ليلةٍ من ليالي الشتاءِ
أو كما يرحل الضوءُ إلى النّورِ
عند إطلالةِ الشمسِ
من كوّةٍ نحتَتْ في غيمةٍ
عند الأفُق...

أرحل إليك

كما ترحل الصّورُ إلى خيالِ شاعرٍ

أو كما ترحل الزُّرقةُ إلى السّماء...

أرحل إليك

كما يرحل الأرجُ إلى وردةٍ عاشقةٍ

تتشاكى حمرةُ لونُ وُرَيقاتِها وحمرةُ الخدِّ في الخفَر...

رحيلي إليك أيّها الحبيب

ليس خطّاً لمدىً

وليس انتهاءً لابتداء...

رحيلي إليك

رحيل الذّاتِ إلى الذّاتِ

رحلةً بلا طريق...

وأرحلُ وأرحلُ دون طريقْ

وأقطعُ كلَّ الوهادِ

إلى حيث لا شيءَ إلّا وجيبُ

وصمتٌ ينادي

وقلبٌ يذوبُ

ولهفةُ آهٍ تجوبُ

قفارَ الزمانِ السحيقْ...

وتشرقُ شمسِي

معاً وتغيبُ

وتُتْرَعُ كأسي

بخمرٍ عتيقْ

عصارةِ إطلالةٍ لدنيّةْ

تهاوتْ فكانَ المكانُ

بنكهتِهِ الزَّمنيّةْ

وأشربُ أشربُ لا أرتوي

وتُطوى الوهادُ ولا أنطوي...

وينهدُّ عقلي وقلبي

ويعصَى عليّ البيانُ
وتصفَرُ أعماقُ لبّي
ويَفرَغُ مِنّي اللّسانُ
وتُمحَقُ نفسي
ويُطفَأُ حِسّي

ويغرَقُ يومي بأمْسي
ويدخُلُ مهدِيَ رمسي
وينسِلُني من طيوفِ السَّوادِ
ويرحل بي نحوَ صبحٍ جديْدِ
على شاطىء من وُرودٍ...
ويَنْسَلُّ مني الزمانُ
وتضحَكُ منّي الدروبُ
دُروبِي التي لا تَنِي تلْتَوي
تُصَعِّدُ، تهبِطُ
بين بوادي دمائي...

الشيخ نسيب سعيد مكارم
الوالد القدوة*

وُلد الشّيخ نسيب سعيد مكارم في الرابع عشر من أيلول سنة ١٨٨٩ في عيتات من جبل لبنان، وأصل عائلته من رأس المتن التي هجرها الجدّ أيّام حروب إبراهيم باشا المصري في بلاد الشّام. توفّي والدُه وهو في الرابعة عشرة من عمره مخلّفا عائلة كبيرة من سبعة أبناء وابنتين، الأمر الّذي ترتّب عليه حمل عبء مسؤوليّات إعالة وتدبير في سنّ اليفاع، وكان الشيخ نسيب طالبًا في مدرسة سوق الغرب الخاصّة بالبعثة الأميركيَّة، فتركها ليُكمِل عمل أبيه في النّجارة.

برزت موهبته في الخطّ بتأثير والدته على الأرجح، التي كانت قد تخرّجت قبل زواجها في مدرسة شملان الإنكليزية حاملة شهادة "الهاي سكول"، وكان خطّها جميلا.

ثمّ ما لبث الشيخ نسيب أن انكبَّ بكليَّته على العمل الدؤوب ممارسةً وجهدًا وكدًّا لإتقان فنّ الخطّ العربيّ المتنوّع وفق أصُوله العريقة، ولاكتساب مهارات الإبحار فيه. كما دأب على الإطلاع على خطوط القدامى في الكتُب والمجلّات والمصاحف والمخطوطات والمعارض، مقتبسًا روح التّشكيل الحروفي الكلاسيكيّ، لا لتقليده وحسب، بل للانطلاق به، وفق الأسُس والقواعد الصّارمة التي تضبط جماليّاته، إلى فسحة اللوحة البديعة التي قُدِّر لها أن تصير بين يديه أعمالًا مُسلَّمًا بقيمتها وروعتها، وشاهدة على مدى أصالة إرث الخطّ العربي الأصيل في بيئة الموحِّدين الدّروز خصوصًا.

* تمّ إعداد هذه اللمحة استنادا إلى كتاب "نسيب مكارم"، للدكتور سامي مكارم/ وكتاب "الشيخ نسيب مكارم، فنان الخط واللون، للأب أنطوان ضو الأنطوني.

ذاعت شهرة الشّيخ نسيب لتشمل العالمين العربي والإسلامي، لتصل لاحقًا إلى المتاحف الدوليَّة، بعد أن "تفوَّق على نفسه" بكتابة قصائد ونصوص، ورسم خرائط ومعالم على حبّات الرزّ والقمح وغيرها.

أتقن الشيخ نسيب مكارم أنواع الخطوط العربيَّة جميعها (الثلُث والنّسخ والكوفي والديواني والفارسي إلخ...)، وله بها كلّها لوحات مشغولة بطرائح الذّهب وغيره هي اليوم بمثابة تحف فنّيَّة ذات قيمة عالية. فضلاً عن ذلك، فهو أتحف المطبعة العربيَّة بحروف مطبعيَّة عُرفت باسمه "حرف مكارم" تمتاز بمحافظتها على جمال خطّ النّسخ وطابعها المميَّز بدقَّة فنِّية عالية.

وبفضل الشّيخ نسيب مكارم أصبحت عيتات البلدة اللبنانيّة المتواضعة مركزًا من مراكز الخطّ العربيّ، بحيث قال الخطّاط المصري المعروف السيّد أحمد عبد القادر عندما زار مع وفد من الخطّاطين الشيخ نسيب: "لقد انتقلت استانبول إلى عيتات".

درَّس الشيخ نسيب فنون الخطّ مدَّة خمس وأربعين سنة في العديد من المدارس في لبنان منها: البعثة الفرنسية العلمانية (الليسيه)، والكلّية الثانوية العامّة، والجامعة الأميركيَّة، والكلّيّة الشرعيّة الإسلامية في بيروت، وفي الكلّيّة اللبنانيّة في سوق الغرب، وفي الجامعة الوطنيَّة في عاليه... وصار خبيرًا في الخطوط لدى المحاكم المدنيَّة، واشتهر بذلك بحيث طلبت خدماته عدّة دول في قضايا معيَّنة. نال الكثير من الأوسمة بدءًا

بالوسام المجيدي العثماني وصولا إلى وسام الاستحقاق اللبناني المذهّب، مرورًا بأوسمة من الأردن وفرنسا والعديد من المؤسّسات الأكاديميّة. سُمّي خطّاط الملوك لأنَّه عُيِّن خطّاطا فخريّا للجمهوريّة اللبنانيّة وللملوك كلّ من الأردن والعراق والكويت...

وآثر الشَّيخ نسيب مكارم أن يوقِّع لوحاته بعد كلّ هذا التكريم ب: "الفقير" نظرًا لعمق إيمانه وتواضعه وصلته بالبيئة الدينيَّة والتزامه المسلك الدينيّ. بالطّبع، انعكس ذلك على أهمّ أعماله خصوصًا في سنّ النّضوج والمراحل الأخيرة في حياته، إذ عبَّرت مواضيع اللوحات عن الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وعن تمييز مستنير بالحِكَم الراقية. وتجلَّى هذا الإيمان في أعماله بإحساسٍ يحرّك في المتلقّي مهابة حضارة روحيَّة عظيمة. وكان لا يرى لنفسه أيّ فضل بما أتى به، بل ينسب كلّ شيء إلى نِعَم الله تعالى عليه، ويكثر من الحمد والشّكر للواهب المنّان بالفضل والخير.

وتشهد دارة د. مكارم في عيتات، وشقّته في بيروت، على تأثّر د. سامي مكارم العميق والأصيل بوالده المرحوم الشيخ نسيب. فالجدران تحمل الكثير من اللوحات البالغة الرّوعة، وجلّها يحفظُ في مشهدها الفريد عبارات الحمد والشكر والتضرّع والإقرار بفضل الله تعالى، والحثّ على الإنابة إلى نوره والتوبة إليه، وتأمُّل حكمته الخالدة في الوجود.

وكثيرًا ما تحدَّث د. سامي عن والده بشوق عميق، واستشعار مغمور بمحبَّة ثابتة، معترفًا بفضله ورعايته وحبّه المفعم بالإيمان والحثّ على التمسُّك بأهداب الفضيلة.

وردَّد مرارًا نصيحته له وكان على أهبة السَّفر إلى الولايات المتَّحدة للتخصُّص، قال له: "يا ولدي، إنَّ الله سبحانه وتعالى منَّ عليّ بموهبةٍ كرَّستها لوجهه والشّوق إليه، فإذا ما وفَّقك الله عزَّ وجلَّ في دراستك، فابذل علمَك في خدمة الحقّ والخير وحبّ الخالق الكريم، بهذا تحفظ حقّ النِّعمة وتكون إنسانًا مستحقًّا الفضل."

وللدكتور سامي كتاب عن والده بعنوان "نسيب مكارم"، كرَّسه لسيرة حياة والده والتعريف عن أعماله، وفيه يقول عن مفهوم فنّ الخطّ عند الشيخ نسيب ما يلي: "وكان الخطّ عند الشيخ نسيب تعبيرًا روحيّا، فهو في تناسب أجزائه وتآلفها، وتجانس ألوانه وتمازجها، وتكامل حروفه وتوافقها، وفي زخم حركة خطوطه واستقرارها، وتعاليها وشموخها، واستدارتها وتنكفها، إنّما يعبِّر عن جلال الله وجماله، وجبروته ورأفته، وتعاليه وإحاطته، وعزّته ورحمته، واقتداره وحدبه، وهو، في توحّد حروفه على استقلالها، واجتماع خطوطه على افتراقها، إنّما يفصح عن وحدة هذا الوجود حيث يسعى الجزئي إلى الكلّي، ويقصد الكثيف إلى اللطيف، وتتّحد الاحاد بالواحد."

محتويات الكتاب

كلمة لجنة التكريم..... 5
رسالة فخامة رئيس الجمهورية..... 7
الجامعة الاميركية تنعى الدكتور سامي مكارم..... 8
أبحاث ودراسات..... 10
- د.أحمد حطيط..... 11
- د.محمد السماك..... 17
- د.انطوان سيف..... 27
- الشيخ غسان الحلبي..... 31
- د.سعاد الحكيم..... 38
- الشيخ سامي ابي المنى..... 47
- د.محمد شيا..... 55
- د.أنطوان مسرة..... 66
- أ.عباس الحلبي..... 69
- أ.حسان زين الدين..... 75

كلمات من القلب..... 94
- الوزير د. حسان دياب 95
- المطران جورج خضر..... 97
- د.فوزي صلوخ..... 98
- الأب يوسف مونس..... 102
- السيد علي فضل الله..... 103
- د.رمزي بعلبكي..... 108

- الأب د.جورج مسوح 112
- د.رؤوف الغصيني 115
- رابطة العمل الاجتماعي 119
- أ.سلمان زين الدين 122
- د.صالح زهر الدين 126
- أ.سعيد حمود ملاعب 131
- أ.عفيف خضر 138
- أ.يقظان التقي 141
- أ.سليمان بختي 144
- الشيخ غسان الحلبي 146
- الشيخ سامي ابي المنى 149
- د.توفيق بحمد 155
- أ.عصام سلمان 157
- جمعية سدق 159
- جمعية واحة العطاء 162
- نسيب سامي مكارم 165
- السيدة نجوى زيتون ناصر الدين 168

مؤلفات وسيرة حياة 173

- رحلة في مؤلفات د. سامي مكارم 174
- سيرة حياته 187
- مؤلفاته 191
- مواقف في كلمات 199
- نماذج من عبير شعره 202

الشيخ نسيب سعيد مكارم ــ الوالد القدوة 210